ابن خلدون شاعرا

دكتـورة

فردوس نور على حسين

أستاذ الأدب والنقد المساعد
في قسم الأدب والنقد
فى كلية الدراسات الإسلامية
والعربية - فرع البنات
جامعة الأزهر

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر
ت: ٢٧٥٢٧٩٤ - ٢٧٥٢٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين

وبعد :

فعبد الرحمن بن خلدون مؤسس علم الاجتماع، وعالم طوفت شهرته الآفاق فى بلاد العرب والمسلمين، وبلاد العالم كله شرقه، وغربه، وهو نابه الشأن فى قومه، وأمته، ينتمى إلى أرومة عربية يمنية، وأهله ذوو رياسة، وعلم مما يجعله علىّ المكانة، وقد حظى بثقافة علمية وأدبية واسعة، وتقلد مناصب عديدة فى ظلال السلاطين والأمراء الذين حكموا المغرب. ، ومملكة غرناطة بالأندلس، ومصر، وكان يتنقل حيث يصفو له الجو ويحلو.

وكان يشارك فى السياسة بقدر ما يشارك فى العلم، وبلغ من المناصب أعلاها فولى الحجابة وهى تعادل رتبة رئيس الوزراء الآن.

وكان له من العلم والفضل ما جعله يتبوأ أعلى المناصب فى التدريس والقضاء.

ولكن شهرته - باعتباره عالم اجتماع وتاريخ وحضارة - كانت أسبق إلى الأذهان، ولم يعرف فى محيط الأدب أنه أحد شعراء العربية المعدودين . ولعل ذلك يرجع إلى أن بعض العلماء - وإن كانوا شعراء - ينصرفون عن الشعر إلى العلم وما يتبعه من التأليف والتدريس ولعل ذلك - أيضا - لأن سوق العلم أكثر رواجا من سوق الشعر ولاسيما فى العصور المتأخرة.

ولذلك فإن ابن خلدون لا يعرفه كثير من الناس شاعراً، وقد ظل شعره حبيس

الأوراق ولعل ذلك لأنه لم يجعل له ديوانا كدواوين الشعراء فى عصره وقبل عصره، ولم يهتم بتدوينه بحيث ضاع كثير منه ولم يبق إلا ما ذكره - فى أثناء عرضه سيرته الذاتية فى كتابه التعريف الذى جعله ملحقا بآخر كتابه العبر، وما تناقلته بعض الكتب ككتاب نثير الجمان لابن الأحمر.

وقد عانيت كثيرا فى العثور على كتابه (التعريف) - الذى يعد ترجمة ذاتية له - ونفدت طبعته الأولى (١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م) التى تكفلت بها لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى.

وباطلاعى على نسخة كتاب التعريف وجدت كثيرا من شعر ابن خلدون مبثوثا فى ثنايا الكتاب يشهد له بالبراعة فى الشعر والتمكن منه، وقد ذكره إلى جانب شعر كثير لأساتذته وأصدقائه أو معاصريه.

ورأيت الفرصة سانحة لكى أبرز عوامل الشاعرية عند ابن خلدون وأبين منزلته بين شعراء عصره فرأيت أن أكتب عنه بحثا بعنوان (ابن خلدون شاعرا) .

وكان لابد لى أن أقرأ كثيرا عن حياة ابن خلدون الحافلة والواسعة ولم يتأت لى ذلك إلا بمراجعة تاريخ المغرب - الذى ولد فيه ونشأ وعاش - وتاريخ مصر - فى الحقبة التى قضاها فيها.

وكان الأمر شائكا لكثرة الدويلات، والحكام، والانقلابات السياسية فى المغرب وقد اقتضى ذلك منى جهدا كبيرا فى الرجوع إلى المصادر وأمهات الكتب التاريخية والسياسية والاجتماعية والأدبية التى تتعلق بعصره ولا سيما أن أسلوبه فى كتابه العبر يحتاج إلى صبر وأناة ومعاناة.

كذلك أسلوبه فى كتابة (التعريف) وسرده للأحداث والوقائع التى يتداخل بعضها فى بعض فى كل موقع من الكتاب .

وقد عكفت على هذه المصادر أقرأها وأفهمها وأستلهمها حتى وقفت على نشأته العلمية والمؤثرات على حياته الأدبية وشاعريته، وتمكنت - بعون الله - من تحديد قصائده ومعرفة مناسباتها وظروف إنشائه وإنشاده لها .

وحددت معالم حياته الشعرية وجعلت بحثى قائما على ما يلى:

- عصر ابن خلدون : تكلمت فيه عن الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية فى المغرب وبلاد الأندلس وفى مصر أيضا - لمعرفة المؤثرات عليه هنا وهناك .

- التعريف بابن خلدون : اسمه ونسبه ومولده ونشأته، ووظائفه وتنقلاته داخل المغرب وخارجها، ووفاته وأهم مؤلفاته .

- شاعريته : عرضت فيها المراحل التى مر بها فى مسيرته الشعرية منذ بدء قوله الشعر، وبعد تمرسه به . وازدهاره على لسانه، إلى تركه الشعر واقتصاره على العلم معللة ذلك ومستشهدة عليه من شعره .

- ثم تكلمت على أغراض شعره، وتنوعها فى المدح، ووصف المعارك، والانتصارات، والشكوى والاستعطاف، والنسيب والتشبيب والحنين إلى الأهل والوطن كاشفة عن اتجاهاته فى ذلك، ومعالم هذه الاتجاهات والمؤثرات عليها، والمفاهيم والدلالات الأدبية من خلال دراستى المتعمقة للنصوص فى ضوء اتجاهات الشعر العربى بعامة وشعر المشارقة والمغاربة بخاصة وفى ضوء معطيات حياة ابن خلدون، وأثرها فى شعره، والأجواء المحيطة بالبيئات التى عاش فيها .

- ثم جئت إلى الصورة الفنية فى شعر ابن خلدون فتناولت تجاربه النفسية والأدبية المتنوعة، وعواطفه الكثيرة الظاهرة حينا، والمكبوتة حينا آخر من خلال ما ذكره نقاد الأدب والشعر، كما عرضت مجالات صوره الشعرية، وخيالاته، وابتكاراته وعناصر الصورة الأدبية عنده ونمط الشكل والحجم، وحشد ما يمكن حشده من ألفاظ اللغة جزلها، ورصينها، وغريبها، وملاءمتها للمقام حسنا وتأثيرا والتجسيم المحسوس والحركة المرئية، وحسن استخدام الأساليب، وتنوعها بين الخبر والإنشاء، والإثبات والنفى والاستفهام، إلى غير ذلك، وتوليد المعانى واختراعها، واستخدام المعانى والأقيسة المنطقية، وخلع الحركة والحياة على الجمادات والمعاني، ولجوء الشاعر إلى التلوين والاقتباس واستعمال البديع والتفنن فيه .

كما تبدو صحة عبارته اللغوية، والالتزام بصحة الوزن، والقوافى وملاءمتها لغرضه الشعرى.

هذا وغيره كثير مما أوضحته مستنبطة له من الدراسة التحليلية والنقدية لشعره.

ويبدو للقارئ أننى اعتمدت على مصادر أدبية ونقدية كثيرة فى التحليل والتجلية للنواحى الشعرية التى وصلتها بالتراث وعلوم الأدب والنقد قديما وحديثا ونظرياتها الموثوق بها حتى اكتملت صورة واضحة لشعر ابن خلدون يستحق بها أن يوصف بأنه شاعر مجيد.

وقد ذكرت - بعد ذلك - المصادر والمراجع، وفهرس المحتوى العام للبحث.

ولعلى بذلك أكون قد وفيت ابن خلدون حقه، ورسمت صورة حية لحياته وشعره تضيف جديدا إلى فن الشعر، ومن نبغ فيه من الشعراء.

والله تعالى هو الهادى سواء السبيل

القاهرة في ٢٥ من المحرم ١٤٢١هـ

٣٠ / ٤ / ٢٠٠٠م

د. فردوس نور على حسين

عصر ابن خلدون

قضى ابن خلدون شطراً كبيراً من حياته فى المغرب وبلاد الأندلس مولداً ونشأة، وحياة حافلة بالعلم والمناصب ، كما قضى شطراً من حياته فى مصر حتى وفاته وتولى فيها بعض المناصب ، وكان له أثره البارز فيها ، وتوفى بها ودفن فى مقابرها .

وهذا يقتضى أن نلقى ضوءاً على الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية فى المغرب وبلاد الأندلس ، وفى مصر أيضاً آنذاك حتى يمكن التعرف على المؤثرات فى حياته هنا وهناك ، ويمكن معرفة عوامل الشاعرية فى نفسه ، وصلة شعره بالأحداث والوقائع وارتباطه بها ، وتتضح المناسبات التى نشأ فيها وما يرمى إليه من أغراض ، وصلته بالحركة الأدبية فى هذه الأقطار وما لها من أثر سياسى واجتماعى وثقافى فى شعره .

الحياة السياسية فى المغرب

أطلق اسم (المغرب) على طائفة البلدان والمناطق التى تقع فى شمال غرب أفريقية منذ القرن الأول الهجرى، وهذا الإطلاق كان على يد المسلمين الذين فرقوا بذلك بين شرق الامبراطورية الإسلامية وغربها وموقع ذلك من دار الخلافة .

وكانت تسمى قبل ذلك بأسماء مختلفة منذ القرن ا لتاسع ق . م [١] وفى مجال التقسيم الجغرافى للمغرب نجد ثلاثة أقسام منسوبة إلى دار الخلافة هى :

١ - **المغرب الادنى** : ويمتد من طرابلس [٢] إلى مدينة بجاية[٣] غرباً وتمثل هذه المنطقة تونس الآن إلى جوار جزء من طرابلس وكان يطلق على هذا القسم اسم افريقية أطلقه العرب عليه منذ عهد الخلفاء الراشدين وأساسه القيروان وتونس.

٢ - **المغرب الأوسط** : ويمتد من تاهرت[٤] حتى وادى ملوية[٥] وبعض الجبال ويشمل وسط وغرب الجزائر وأساسه تلمسان [٦]، وكان يطلق على الجزائر فى القرون الوسطى اسم المغرب الأوسط، وظهر اسم الجزائر منذ أوائل القرن العاشر الميلادى بإطلاقه على عدة جزر فى مواجهة مدينة إيكوسيم، وامتد إطلاق الاسم

---

(١) انظر تاريخ المغرب والأندلس د. عصام الدين الفقى ص ١٢ ، وتاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبور ١/ ٥ ، والمغرب الإسلامى د. السيد محمود سالم ص ٥ .

(٢) مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجية ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . الطاهر الزواوى ص ٤٥ ، وتقع طرابلس فى الشمال الغربى من ليبيا وكان اسم ليبيا يطلق قديماً فى عصر الإغريق والرومان لكنه أهمل قروناً طويلة لاستخدام أسماء البلدان بمجتمعاتها المحلية ثم أعيد اسم ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية . الوطن العربى لمحمد عبد الغنى سعودى ص ٤٤٢ .

(٣) بجاية مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب .

(٤) اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب تسمى إحداهما : تاهرت القديمة ، والثانية : تاهرت المحدثة . تاريخ المغرب الكبير ٢/ ١٠٩ .

(٥) فتح العرب للمغرب . د. حسين مؤنس ص ٤ .

(٦) مدينة بالمغرب اسمها القديم : أقادير على بعد مرحلة من وهران . معجم البلدان ٢/ ٤٠٩ .

حتى شمل البلاد كلها فى العصر التركى [1]

٣ - **المغرب الأقصى :** ويضم باقى المغرب من وادى ملوية إلى المحيط الأطلسى وقاعدته فاس ومراكش، ويطلق عليه الآن المغرب، وفى طنجة إحدى مدنه أنشىء جامع القرويين الذى يعد منارة إسلامية [2]

وتضم هذه الأجزاء عديداً من السكان الذين يمكن تصنيفهم إلى : البربر - سكان البلاد الأصليين - وأخلاط من اللاتين والبيزنطيين الذين كان منهم الفاتحون لبلاد المغرب من قبل منذ عام ٥٣٣ م وبقايا من أهل قرطاجنة، ولكن الأغلبية لعنصر البربر ويرجعون إلى فرعين : البرانس وبتر، والفرع الأول من سكان السهول والمناطق الزراعية والمدن وهم أهل زراعة وصناعة .

والبتر من البدو وهم سكان البوادى والصحارى ولكل من الفريقين قبائل ذكرها ابن خلدون قائلاً : « هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى وهم سكان المغرب القديم ملئوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره» [3] ولغتهم حامية .

وتعاور عليها القادمون إليها من الفينيقيين والرومان وقبائل الوندال أو (الوندلس) - من سكان الجزء الجنوبى من أسبانيا التى كانت تسمى فى العصور القديمة باسم ايبريا - .

وجاء العرب المسلمون فخلصوا بلاد المغرب من الرومان وعسفهم فقضوا على نفوذهم وأشاعوا الأمن والطمأنينة بين الناس، وقد تم الفتح للعرب المسلمين على مراحل بدأت منذ سنة ٢٢ هـ (٦٤٢) وانتهت بتمام الفتح، وبدأ ذلك بحملة عمرو بن العاص وفتح معظم بلاد المغرب على يد حسان بن النعمان الغسانى وتم بالقائد موسى بن نصير [4] .

---

(١) تاريخ الجزائر العام . عبد الرحمن الجيلالى . ط . بيروت ١٩٦٥ م ج ١ ص ٣٥ .

(٢) الوطن العربى ص ٥٣١ .

(٣) العبر ٦/ ٨٩ .

(٤) العبر ١/ ١١٧ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى ٢/ ٢٢٣ ، وتاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨ وغيرها ، والمغرب الكبير د. السيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ١٤٣ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ ، وتاريخ اليعقوبى ط بريل ١٨٨٣ ص ١٧٩ ، وتاريخ الطبرى ٤/ ٣٥٠ وفتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٧١ وتاريخ ابن الأثير ٣/ ١٢ ، وقادة فتح المغرب لشيت خطاب ص ١٧٦ .

وقد أتم العرب المسلمون جوانب الاجتماع من تعليم القرآن ولغته وإنشاء المساجد وقيام العلماء بالفتيا وتنظيم الدواوين والقضاء وإصلاح الأراضى والطرق وغيرها، إلى جانب الاهتمام بحماية الثغور وتأمين حدود الدولة، وقد أصبحت القيروان (1) مركزاً إسلامياً بمسجدها وحسن إدارتها وانتشر الإسلام بين قبائل البربر وانضووا تحت لوائه .

ومر عصر الولاة وظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث من الهجرة دول كالأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣٢٦هـ)، والرستميين فى المغرب الأوسط (١٤٤ - ٢٩٦ هـ)، والأغالبة فى المغرب الأدنى (١٨٤-٢٩٦ هـ) وبظهورها تقلص نفوذ الخلافة المركزية للعباسيين (2) .

ثم بدأت الخلافة الفاطمية تقوم بالمغرب (٢٩٧هـ - ٩١٠م) (3) بتغلبهم على افريقية (تونس) ثم على غيرها من بلاد المغرب الأوسط والأقصى وقسمت فى عهدهم إلى أقسام إدارية، وقد تتابعت الدويلات إلى أن تأسست الدعوة والدولة المرابطية بأهلها الذين كانوا يسمون بالملثمين، وقد بدأت منذ أوائل القرن الخامس الهجرى (٤٠٠ - ٥٤١هـ) (١٠٥١م - ١١٤٤م) على يد محمد بن تيفاوت (٤٠٠-٤٠٣ هـ) ويحيى بن إبراهيم الجدالى (٤٠٣-٤٣٤ هـ) الذى دخل القيروان سنة ٤٢٧ هـ وطلب من شيخها المالكى أبى عمران موسى الفارسى أن يمده ببعض الدعاة ليعلموا الناس فى الصحراء ففعل وأرسل معهم عبد الله بن ياسين من قبيلة جزولة سنة ٦٥٤ هـ وذهب معهم إلى بلادهم واستطاع ابن يا سين أن يكون جيشاً من أتباعه من القبائل، وقد بسطوا نفوذهم على بلاد المغرب الأقصى والأوسط فى عهد يوسف بن تاشفين (٤٥٣-٥٠٠هـ) كما مد نفوذه إلى سبتة وطنجة وسلا وغيرها من بلاد الأندلس، ثم اختار عاصمة لملكه الممتد سماها مراكش، كما يقول ابن خلدون : وكان قوام هذه الدولة على البربر وخدمت هذه الدولة الإسلام وكان

---

(1) أسسها عقبة بن نافع . تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ١٥٢ وأحسن التقاسيم ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

(2) البيان المغرب لا بن عذارى ١/ ٩٢ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٧٦ .

(3) البيان المغرب لابن عذارى ١/ ١٥١ والكامل لابن الأثير ٨/ ١٨ و العبر ٦/ ٢٣١ .

يلقب حاكمهم بلقب (أمير المسلمين)[1]، وقد حدثت أسباب أدت إلى سقوط دولتهم من أهمها ظهور زعماء دولة الموحدين (٥٤١-٦٦٨ هـ) (١١٤٥-١٢٧٢م) وقد قامت على أساس الدين - أيضاً - تبعا للمذهب الظاهرى، وقد قامت هذه الدولة على جهود (محمد بن تومرت) ولقب نفسه بعد ذلك بـ أبى عبد الله المهدى (٤٨٥-٥٢٤هـ) وكانوا يدعون أنها تقوم على أساس توحيد الذات والصفات، وقد حلوا محل المرابطين بقوة السلاح بعد محاولات كان أهمها استيلاؤهم على عاصمة المرابطين (مراكش) سنة ٥٤١هـ[2]

وكانت لهاتين الدولتين جهود فى الأندلس ومقاومة غير المسلمين من الملوك المعتدين عليها .

وقد ظهرت بالمغرب - بعد دولتى المرابطين والموحدين - طائفة من الدويلات والإمارات وأهمها :

١ - **دولة الحفصيين بالمغرب الأدنى :** والتى كانت تسمى افريقية (تونس وما جاورها) (٦٢٥-٩٤١هـ) (١٢٢٨-١٥٣٤م)، ومن أشهر رجالات بنى حفص عبد الواحد بن أبى حفص الذى تولى إمارة تونس للموحدين فلما بدأ الضعف فى الأسرة الحاكمة استقل بنو حفص بتونس وكانوا يحاولون الاستيلاء على الشمال الإفريقى كله ويرغبون فى أن يرثوا ملك الموحدين جميعه .

٢ - **دولة بنى عبد الواد :** ومقرها المغرب الأوسط وقاعدته تلمسان (٦٣٣-٧٩٦ هـ) (١٢٣٥-١٣٩٣ م) كان بنو زيان من قبيلة بنى عبد الواد ولاة للجزائر من قبل الموحدين فلما ضعف الموحدون، واستقل بنو حفص عنهم أعلن بنو زيان أيضاً استقلالهم، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم، وكان بنو عبد الواد متغلبين فى أكثر الأزمان على المغرب الأوسط وزعيمهم ومؤسس دولتهم اسمه يغمر أسن، وقد وقفوا فى وجه مطامع بنى حفص ومطامع المرينين الذين كانوا يمتون إليهم بصلة

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٤٣ ، ٤/ ٢٤ ، والعبر ٦/ ٢٢١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ وقادة فتح المغرب العربى ، لواء محمود شيت خطاب ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) جذوة الاقتباس ص ٩٧ ، وتاريخ أبى الفدا ١/ ٣٤٢ ، والتعريف ص ١٣ هامش (٣) ، والمغرب العربى محمود شيت خطاب ص ١٧٧ وما بعدها .

النسب فى محاولة كل من الدولتين الحفصية والمرينية الاستيلاء على الشمال الإفريقى كله فوقعوا بين فكى الرحى .

٣ - **دولة بنى مرين** : فى المغرب الأقصى وقاعدته فاس، (٥٩١-٩٥٧ هـ) (١١٩٥-١٥٥٠ م) . كان بنو مرين يقطنون جبل زنانة وهم قوم حياتهم قبلية ويميلون للغارات والصيد وحياة الصحارى . وكان المرابطون يدعون بنى مرين للاشتراك معهم فى رد عدوان الفرنجة على المسلمين فى الأندلس فكانوا يجيبونهم فى صد العدوان، ودالت دولة المرابطين وجاء الموحدون إلى الحكم وبنو مرين على حالهم من الحياة البدوية التى تعد الفروسية والغارة من أهم دعاماتها، ولما بدأ الضعف يظهر على ملك الموحدين بدأ بنو مرين يغيرون على ما يجاورهم من بلدان الموحدين وقد خاضوا معارك ضد جيوش الموحدين وكتب لهم النصر فيها وساعدهم على ذلك ظهور بنى حفص فى تونس ينتقصون من حدود دولة الموحدين، وكذلك ظهور بنى زيان فى تلمسان والمغرب الأوسط، وغارات الفرنجة فى الأندلس، وقد ساعد الحفصيون بنى مرين فى أول الأمر ضد الموحدين بالمال والعتاد وكان بنو مرين يدعون لبنى حفص وباسمهم يحاربون الموحدين، ثم ظهرت دولة بنى مرين بفتح مكناسة سنة ٦٤٦ هـ على يد زعيمهم أبى بكر بن عبد الحق، وبايعه أهل فاس التى أصبحت عاصمة لبنى مرين، وجاء بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق فاستولى على مراكش عاصمة الموحدين سنة ٦٦٧ هـ وعلى سجلماسة سنة ٦٧٢ هـ وبهذا دانت بلاد المغرب لبنى مرين .

وكثيراً ما كانت تقوم المنازعات بين هذه الدول الثلاث، وفى سنة ٧٩٦ ظهر الضعف فى دولة بنى عبد الواد، فزحف عليها بنو مرين وضموها لدولتهم [(١)]

وقد مد السلطان أبو الحسن المرينى على بن عثمان (٧٣١-٧٤٩ هـ) (١٣٣١-١٣٤٨م) نفوذه بعد أن استولى على المغرب الأقصى وفاس سنة ٧٣١ (١٣٣١م) ثم استولى - أيضاً - على تلمسان والمغرب الأوسط - من حكامها بنى

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . الجزء الرابع من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر . د. أحمد شلبى . ط ٢ ص ١٨٩-١٩٢، ٢٤٥ - ٢٤٨، ٣٣٤-٣٣٦ ، وبغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ليحيى بن أبى بكر بن خلدون أخى عبد الرحمن بن خلدون ط ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠م. الجزائر.

عبد الواد - سنة ٨٤٧هـ، وانتزع - أيضاً - الحكم من الحفصيين وضم إليه المغرب الأدنى (تونس وما حولها) سنة ٧٤٧ هـ مع أنه صهر وصديق للحفصيين، وبذلك جمع فى يده سلطة المغرب كله فاتسعت رقعة الدولة المرينية .

ولكنه مكث قليلاً فى المغرب الأدنى وغادر تونس نظراً للطاعون الذى حل بها سنة ٧٤٩هـ .

وتعد هذه فترة اضطراب فى الحكم إذ إن الأمور لم تستقر للمرينيين فما كاد أبو الحسن يغادر تونس (المغرب الأدنى) حتى هجم عليها وانتزعها منهم الفضل بن السلطان أبى يحيى الحفصى وجعل عليها وزيراً هو محمد بن تافراكين، وما كادت الوزارة تقع فى يده حتى عزل السلطان الجديد وهو الفضل الحفصى، ووضع مكانه ولياً للعهد أخاه أبا إسحاق بن أبى يحيى (٧٥١-٧٧٠هـ) (١٣٥٠-١٣٦٨ م) وهو طفل وجعل نفسه ولياً عليه وكافلاً له [١]، وتولى بعده ابنه خالد (٧٧٠ - ٧٧٢هـ) (١٣٦٨-١٣٧٠م) ثم جاء حفيد للسلطان أبى يحيى الحفصى يسمى أبا العباس أحمد (٧٧٢-٧٩٦هـ) (١٣٧٠-١٣٩٤ م) وانتزع الحكم من ابن تافراكين، وكان هذا الحفيد قائما على أمر قسنطينة التى استبد عليها بعد أخيه أبى زيد [٢] .

كما أن بنى عبد الواد قد استطاعوا أن يسترجعوا معظم مملكتهم فى المغرب الأوسط، ولما توفى السلطان أبو الحسن المرينى جاء الى الحكم ابنه أبو عنان [٣] وكان قوياً استطاع أن يسترد ما انتزع من ملك أبيه فى المغربين الأدنى والأوسط فاستولى على بجاية وأخذ ملكها أبا عبد الله محمداً الحفصى أسيراً إلى فاس ثم أطلق سراحه بعد ذلك، كما قتل ملك تلمسان واستولى عليها [٤] .

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبى بكر بن يحيى بن إبراهيم . التعريف ٣٧، ٣٨، ٥٣، ٥٤ .

(٢) التعريف ص ٤٢، ٥٤، ٩٦.

(٣) هو فارس بن أبى الحسن المرينى يكنى بأبى عنان ، وكان يلقب بالمتوكل ، ولد سنة ٧٢٩ هـ بفاس ، وبويع فى حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان ، وتوفى قتيلاً سنة ٧٥٩ هـ . (العبر ٧/ ٢٧٨ : ٥٨٥) ، والتعريف ص ٣٧ هامش (٢) و ٦٥ هامش (١) والاستقصا ٢/ ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ وصبح الأعشى ٥/ ١٩٥ .

(٤) العبر ٧/ ٥٩٨ ، ٥٩٩ والتعريف ص ٩٥ .

ثم جاء بعد أبى عنان ابنه أبو زيان (محمد بن فارس) (٧٥٩هـ) (١٣٥٨م) فأقصاه الوزير الحسن بن عمر عن العرش فى الحال وولى ابنه الصغير السعيد بن أبى عنان [١] وكان تصريف الحكم بيديه فجاء من بعده منصور بن سليمان - وهو ينتسب إلى يعقوب بن عبد الحق الذى أقام الدولة المرينية فى المغرب الأقصى - (٦٥٧-٦٨٥ هـ) وأقصى الوزير الحسن بن عمر عن الحكم وتولى هو السلطة [٢]، ثم جاء أبو سالم بن أبى الحسن [٣] - الذى كان منفياً فى عهد ولاية أخيه أبى عنان إلى الأندلس - وانتزع السلطة من منصور بن سليمان بمعونة القبائل والشيوخ، وقد أدى ذلك إلى هرب منصور بن سليمان وتولى أبى سالم العرش مكانه فى شعبان سنة ٧٦٠هـ ، ثم جاء الأخ الثالث وهو تاشفين بن أبى الحسن (٧٦٢هـ) (١٣٦١م)[٤] بمعونة من بعض ذوى الرأى ولا سيما الوزير عمر بن عبد الله [٥] الذى كان صهراً لهم (زوج أختهم) وأميناً للسلطان أبى سالم ثم قفز مرة أخرى بنو عبد الواد على المغرب الأوسط ، فى ظلال هذه الاضطرابات المتعددة وكان عليها (أبو حمو) والى تلمسان من هذه العائلة الحاكمة [٦]، كما استطاع أبو عبد الله محمد الحفصى - بعد خروجه من السجن - أن يسترد عرش بجاية - مرة ثانية - سنة ٧٦٥ هـ، وجعل يحيى أخا ابن خلدون الأصغر وزيراً له [٧]، ثم قفز عليه ابن عمه السلطان أبو العباس أحمد الحفصى حاكم قسنطينة واستولى على الحكم فى بجاية، وقتل

---

(١) هو السعيد بالله أبو بكر بن أبى عنان (٧٥٩-٧٦٠هـ) (١٣٥٨-١٣٥٩م).

(٢) التعريف ص ٥٢ ، ٦٨ وكان ذلك سنة ٧٦٠ هـ .

(٣) هو إبراهيم بن السلطان أبى الحسن ، وأخو االسلطان أبى عنان فارس ، تولى السلطة منتصف شعبان سنة ٦٧. هـ . وتوفى قتيلاً سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١هـ) التعريف ص ٤٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ والعبر ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٦.

(٤) التعريف ص ٥٢ .

(٥) من الوزراء الذين كان لهم الأثر البارز فى تصريف شئون الدولة بالمغرب . التعريف ص ٤٤ والعبر ٧/ ٣١٩، ٣٢٣.

(٦) هو أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمر أسن بن زيان ، انتزع تلمسان من يد بنى مرين . التعريف ص ٦٤ ، ٩٦ والاستقصا ٢/ ١٠٣ والعبر ٧/ ٢٨٠ وبغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد ١/ ١٢٦ - ١٣٢ .

(٧) العبر ٧/ ٢٦٧

السلطان أبا عبد الله محمداً الحفصى سنة سبع وستين وسبعمائة [1]، ثم تولى المغرب الأقصى عبد الحليم بن عثمان الثانى (٧٦٣ هـ) (١٣٦٢م) وبعده تولى محمد بن أبى عبد الرحمن بن على (٧٦٣ - ٧٦٨ هـ) (١٣٦٢ - ١٣٦٦م) ، ثم تولى بعده أبو فارس عبد العزيز بن أبى الحسن المرينى (٧٦٨- ٧٧٤هـ)(١٣٦٦ - ١٣٧٢م) بمعونة الوزير عمر بن عبد الله (سنة ٧٦٧ هـ) وقد حاول أن يسترد تلمسان من السلطان أبى حمّو (من بنى عبد الواد) [2] فوصل إلى هدفه ذلك سنة ٧٧٢ هـ، ثم توفى السلطان عبد العزيز وتولى ابنه السعيد تحت رعاية الوزير ابن غازى سنة ٧٧٤ هـ [3] وهو صبى لم تتعد سنه الخامسة وخلع سنة ٧٧٦ هـ على يد السلطان أبى العباس أحمد الحفصى الذى أهدى إليه ابن خلدون كتابه العبر سنة ٧٨٤ هـ .

وتظل هذه الفترة مليئة بالانقلابات السياسية التى لا تجعل للحكم استقرار .

وقد مرت الأندلس منذ الفتح الإسلامى لها بمراحل وعهود هى :

١ - **عهد الفتح** : (٩٢هـ - ٩٥هـ) (٧١١م - ٧١٤م) .

٢ - **عهد الولاة** : من حكم عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى قدوم عبدالرحمن الداخل (٩٥هـ - ١٣٨هـ) (٧١٤م - ٧٥٥م) .

٣ - **عهد الامارة** : من عهد عبد الرحمن الداخل إلى عهد إعلان الخلافة على يد عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر (١٣٨هـ - ٣١٦هـ) (٧٥٥م - ٩٢٩م).

٤ - **عهد الخلافة** : من الفترة السابقة حتى آخر عهد المنتصر أو آخر دولة بنى عامر (٣١٦هـ - ٤٠٠هـ) (٩٢٩م - ١٠٠٩م) .

---

(١) التعريف ص ٩٨ ، ٩٩، والعبر ٧/ ٢٦٩

(٢) التعريف ص ٤٤ .

(٣) العبر ٧/ ٢٧٦، ٢٨٠، ، ٦٧٠، وقد فتك السلطان عبد العزيز بالوزير عمر بن عبد الله . العبر ٧/ ٦٧٣ والتعريف ٤٤ .

٥ - عهد ملوك الطوائف : وأهمهم بنو عباد فى اشبيلية وبنو حمود فى مالقة وبنو زيرى فى غرناطة وبنوهود فى سرقسطة وبنو ذى النون فى طليطلة ومناطق أخرى (٤٠٠هـ - ٤٨٤هـ) (١٠٠٩م - ١٠٠٩م)

٦ - عهد المرابطين والموحدين : (٤٨٤هـ - ٦٢٠هـ) (١٠٩١م - ١٢٢٣م) .

٧ - مملكة غرناطة : وقد قامت فيها دولة بنى الأحمر واستمرت مايزيد على قرنين ونصف (٦٢٠هـ - ٨٩٧هـ) (١٢٢٣م - ١٤٩٣م) [١]

وحكام دولة بنى الأحمر فى مملكة غرناطة يرجعون إلى أرجونة أحد حصون قرطبة، وهم من بنى نصر والعرب الذين جاءوا إلى الأندلس .

ومؤسس دولتهم هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر [٢] وهو من الخزرج ويتصل نسبه بسعد بن عبادة من كبار الصحابة، وقد أصبح أميراً لهذه المملكة سنة ٥٣٦هـ [٣]

وكان ابن خلدون معاصراً للخليفة الثامن [٤] من بنى الأحمر وهو محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر [٥]، وكان وزيره لسان الدين بن الخطيب الكاتب والشاعر المعروف فى القرن الثامن الهجرى المولود سنة ٧١٣هـ وهو صديق ابن خلدون .

وقد قضى ابن خلدون شطراً من حياته فى مصر إبان عهد المماليك .

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ٨٠، ٨١ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٧٢ . وكانت مملكة غرناطة تضم أكثر من مائة مدينة منها الكبرى ومنها الصغرى ، وضعف ذلك من الحصون والأبراج وكان عدد سكانها يربو على مليونين ، وحكمها ما يربو على عشرين أميراً من بنى الأحمر ويلقب الأمير بلقب (أمير المؤمنين) وتولى بعضهم الحكم أكثر من مرة ، وعرفت دولتهم باسم دولة بنى نصر أو بنى الأحمر. نفح الطيب ١/٤٤٦ ، والإحاطة ٥/١٧ والتاريخ الإسلامى . د. أحمد شلبى ٤/١٢٤، ١٢٥ .

(٢) نفح الطيب ١/٤٤٦ .

(٣) الاحاطة ٢/١٠٠، ١٠١ .

(٤) التعريف ص ٤٢ .

(٥) تولى الحكم مرتين ، الأولى سنة ٧٥٥ إلى ٧٥٩ هـ والثانية سنة ٧٦٣ - ٧٩٢هـ. التاريخ الإسلامي . د. أحمد شلبي. ٤/١٢٤ .

الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية
فى المغرب والأندلس

كان مجتمع المغرب يضم عديداً من الأجناس التى اندمجت منذ الفتح العربى الإسلامى، وتتمثل فى القبائل العربية التى خرجت إليها قبل الفتح أو انتقلت مع الجند الفاتحين من شتى أرجاء الجزيرة العربية وتمثل الرعيل الأول من جيل الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم، ومن هؤلاء قبائل من تميم والأوس والخزرج والإزد وكندة وكنانة وغيرهم سواء كانوا من عرب الشمال أو عرب الجنوب فاختلطوا بسكان البلاد الأصليين من البربر والافريقيين ومن نزل بهم من الروم واللاتين وغيرهم .

وقد نشأت طبقات فى هذا المجتمع وهى :

١ - طبقة الحكام والولاة ومن يتصل بهم من كبار رجال الدولة والقواد والقبائل العربية التى تتمتع بالقرب من الساسة والزعماء .

٢ - طبقة التجار والأغنياء وهى تقوم على من يملكون فى يدهم زمام المال وحركة الأسواق التى كانت منتشرة فى البلاد، وتتبادل التجارة فى الداخل أو الخارج .

٣ - طبقة الصناع الذين تقوم بهم ألوان من الصناعات فى البناء للقصور أو الصناعات المعدنية أوغيرها .

٤ - طبقة الفلاحين الذين يقومون على زراعة الأرض وتمثل فى غالب الأمر طبقة الكادحين .

٥ - طبقة المثقفين من الفقهاء والعلماء، وكان لهم تأثير كبير فى الحياة الاجتماعية والثقافية .

وكانت الحال فى رخاء وسعة عيش، يقول ابن خلدون عن شيخه الآبلى : «قال لى شيخنا - رحمه الله - : كان معى دنانير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها فى جبة كنت ألبسها» إلخ [1]، وكان عصر ابن خلدون - على الرغم من عدم الاستقرار السياسى - يزخر بنهضة علمية كبيرة فى جميع الميادين سواء كان ذلك فى العلوم الإسلامية أو اللغوية أو العقلية أو المدنية الحضارية فقد شهد هذا العصر - ممتداً مع ما قبله - غزارة فيما يأتى :

١ - علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وعلوم اللغة :-

فتذكر كتب الطبقات من تضلع فى هذه العلوم من الفحول من العلماء [2] ومن يرجع إلى كتاب (التعريف) لابن خلدون يجده يذكر عدداً كبيراً من العلماء الذين تتلمذ عليهم وهم على علم جم فى ذلك سواء في ذلك من هم من علماء القيروان وتونس أو من هم من شتى أنحاء المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى أو الأندلس فى هذا العصر .

وممن ذكرهم من مشايخه ومشايخهم :

يقول : قرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتِّب أبى عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال الأنصارى، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها، وكان إماماً فى القراءات لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه فى القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرْنى [3] .

وبعد أن استظهرْتُ عليه القرآن من حفظى قرأت عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً .

كما أن هذا الأستاذ كان عالماً بالحديث إذ يقول ابن خلدون : «وعرضت عليه كتاب التقصى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر حذا به حذو كتاب التمهيد على الموطأ مقتصراً على الأحاديث فقط » .

---

(١) التعريف ص ٣٥.

(٢) انظر طبقات علماء افريقية ص ٥٦ وما بعدها ، ورياض النفوس ص ٦ وما بعدها ، ومعالم الإيمان للدباغ ص ٢٠ وما بعدها وانظر فى شيوخه : التعريف ص ٥١ وما بعدها.

(٣) نسبة إلى بطرانة من إقليم بلنسية بشرق الأندلس ، انظر البيان المغرب ٢/ ٢٥٢ .

ثم يقول : «ودارست عليه كتباً جمة مثل كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الحاجب [1] فى الفقه» .

كذلك أخذ عن شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك أبى عبد الله محمد بن على بن سليمان السطى [2] .

كذلك أخذ عن إمام المحدثين والنحاة بالمغرب أبى محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمى، درس عليه الموطأ للإمام مالك وكتاب ابن الصلاح فى الحديث وكتباً كثيرة أخرى، وكانت بضاعته فى الحديث وافرة ونحلته فى التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر فى الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول[3] وسائر الفنون .

كذلك استاذه الآبلى محمد بن إبراهيم ومنشؤه بتلمسان وأصله من جالية الأندلس .

وكان كثير من هؤلاء الشيوخ مقربين إلى الحكام وممن يجالسونهم فى مجالسهم العلمية وممن يصلى بعضهم بهم ويخطب وممن يكتبون لهم، فممن حضر مع السلطان أبى الحسن المرينى بافريقية من العلماء شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوى شيخ القراءات بالمغرب، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس وروى عن الرحالة أبى عبد الله محمد بن رشيد، وكان إماماً فى فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى، وكان يصلى بالسلطان التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه .

وممن حضر معه بافريقية الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد الصباغ من أهل مكناسة كان مبرزاً فى المنقول والمعقول وعارفاً بالحديث وبرجاله وإماماً فى معرفة كتاب الموطأ وإقرائه، أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومكناسة ولقى شيخنا أبا عبد الله الآبلىّ ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية فاستنفذ بغية طلبه عليه فبرّز آخراً واختاره السلطان لمجلسه . . . الخ

---

(١) هو عثمان بن عمر بن يونس جمال الدين المصرى المعروف بابن الحاجب (٥٧٠- ٦٤٦هـ) وهو فى الفقه المالكى .

(٢) انظر نيل الابتهاج ص ٢٤٣ والجذوة ص ١٤٢ .

(٣) يعبر بالمعقول عن العلوم العقلية التى تتناول العقائد ، ومذاهب علم الكلام .

ونرى من المبرزين فى علوم العربية - إلى جانب الفقه وأصوله والحديث - علماء مبرزين، فالشيخ عبد المهيمن تقدم فى معرفة كتاب سيبويه وبرّز فى علوّ الإسناد وكثرة المشيخة وكتب له أهل المغرب والأندلس والشرق واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبد الله بن الحكيم الرندى .

وقد كان من العلماء الأدباء والشعراء مثل أبى القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقى، وكان - كما يقول ابن خلدون - : من مفاخر المغرب فى براعة خطه وكثرة علمه وإجادته فى البلاغة فى الترسيل عن السلطان وقول الشعر والخطابة على المنابر لأنه كان كثيراً ما يصلى بالسلطان، فلما قدم علينا بتونس صحبته واغتبطت به وإن لم أتخذه شيخاً لمقاربة السن فقد أفدت منه كما أفدت منهم» وذكر له ابن خلدون شعرا .

ومن هؤلاء الإمام أبو العباس البنا، وهو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى (٦٥٤-٦٢٤) [١] وهو شيخ المعقول والمنقول والمبرِّز فى التصوف علماً وحالاً .

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب [٢] من أهل فاس برع فى اللسان والأدب والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها ونظمه السلطان أبو سعيد فى حلبة الكتاب وأجرى عليه الرزق مع الأطباء لتقدمه فيهم فكان كاتبه وطبيبه، وكذا مع السلطان أبى الحسن بعده، وكان له شعر سبق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين، وكانت له إمامة فى نقد الشعر وبصر به وذكر له ابن خلدون شعرا [٣]

وكان عبد الله بن خميس التلمسانى [٤] مع عالم آخر لا يجاريان فى البلاغة والشعر [٥] .

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٢٧٨ ، وجذوة الاقتباس ص ٧٣ ، والاستقصا ٢/ ٨٨ .

(٢) توفى بتونس سنة ٧٥٠هـ نيل الابتهاج ص ٦٨ .

(٣) التعريف ص ٤٨ .

(٤) توفى ٧٠٨ أزهار الرياض ٣/ ٣٠١ - ٣٤٠ .

(٥) التعريف ص٣٩ .

ومنهم قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد المقَّرى صاحبنا من أهل تلمسان[1] دعته همته إلى التحلى بالعلم فعكف فى بيته على مدارسة القرآن فحفظه وقرأه بالسبع ثم عكف على كتاب التسهيل فى العربية فحفظه ثم على مختصرى ابن الحاجب فى الفقه والأصول فحفظهما ثم لزم الفقيه عمران المشدًّالى [2] وتفقه عليه وبرّز فى العلوم إلى حيث لم تلحق غايته وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسته بتلمسان فقدمه للتدريس بها [3] .

وهكذا إذا استرسلت فيمن يذكر ابن خلدون من العلماء فستجد من تفتق علمه فى كل العلوم الإسلامية والعربية والعلوم العقلية والنجابة والحكمة والزهد والتصوف ومن برز فى الأدب والخطابة والشعر، وهذا - وغيره كثير - دليل على نهضة العلوم والمعارف وانتشار المدارس ووجود خزائن الكتب وانكباب الطلاب تعلماً على الأساتذة ونهلاً من الكتب، والدواوين والكتب المترجمة عن علوم اليونان وغيرهم، كذلك منهم من برع فى علم الحساب وغيره .

وهذا دليل على ثراء الجانب العلمى، وكانت المكتبات تنتشر فى المساجد وتوقف على طلبة العلم .

وقد قيل : « إن مكتبة فى القيروان - فى عهد سابق - كانت تزن سبعة قناطير كتب أوقفت على طلاب العلم ولاتزال بعض هذه الكتب موجودة فى مكتبة جامع القيروان» [4] .

وكان طالبو العلم ينتقلون إلى المراكز الثقافية وإلى العلماء أينما حلوا فكان

---

(١) هوجد صاحب نفح الطيب . نفح الطيب ٣/ ١٠٠ - ١٢٧، والاحاطة فى أخبار غرناطة ٢/ ١٣٢، ونيل الابتهاج ص ٢٤٩ .

(٢) (٦٧٠-٧٤٥هـ) نيل الابتهاج ص ٣١٥ .

(٣) التعريف ص٥٩، ٦٠ .

(٤) المدارك ٣/ ٣٤١، والحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط ص ٦١، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ٢/ ٣٦٩ .

بعضهم يأتى إلى تونس ومدينة القيروان، وقد يذهب بعضهم من هناك إلى المغربين الأوسط والأقصى، كما كانوا ينتقلون إلى الأندلس ومنها إلى المغرب [١].

وهكذا نجد هذه الرحلات التى كانت تتم ويقوم بها العلماء والطلاب ليحصلوا العلم من مراكزه ومصادره وعلى شيوخه متحملين فى ذلك المشاق، وكانوا بذلك يرضون خاصة أنفسهم دون غرض مادى أو مظهرى، وقد كانت المناصب تأتيهم فيعينون فى الكتابة أو الترسيل ويقربون من السلاطين وكان بعض طالبى العلم يبحثون عنه ويتصلون بمراكزه فى مكة أو المدينة أو الكوفة أو البصرة أو بغداد أو الشام أو مصر، وكانت الكتب تحضر من المشرق إلى المغرب فى شتى العلوم والمعارف فشارك المغرب المشرق فى العلم والمعرفة ولم يكن تقليداً بحتاً وإنما كانت للمغرب والأندلس شخصية علمية لها جوانب الإجادة والتجديد وإن خطت خطواتها على نمط المشرق .

ويذكر أن مذهب مالك انتشر فى المغرب لوفود علماء بعدد غير قليل ممن لقى الإمام مالكاً وسمع منه [٢]

وقد كان بعض فقهاء المغرب يحضرون مجلس الإمام مالك، ويجيبون عن بعض المسائل فى مجلسه، وكان بعض علماء مصر يضعون بعض فقهاء المغرب فى منزلة الليث بن سعد [٣] وقد سأل أسد بن الفرات مالك بن أنس يوما فى مسألة فأجاب فيها، فزاد أسد فى السؤال فأجابه، فزاد أسد فى السؤال فأجابه ثم زاد فقال مالك : «حسبك يا مغربى إن أحببت الرأى فعليك بالعراق» [٤]

وقد شغل المغاربة والأندلسيون بالعلوم كالطب والصيدلة وانتشروا لمعالجة المرضى [٥] ونقلت إليهم كتب الطب وترجمت كتب من اللاتينية - على لسان بعض

---

(١) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ٢/ ١١٦ والديباج لابن فرحون ص ١٣٦، ١٣٧ والمغرب الكبير للسيد عبد العزيز سالم ص ٦١٥ ورياض النفوس ص ٦٤٨ .

(٢) المدارك ١/ ٣٤١ .

(٣) رياض النفوس للمالكى ص ١٧٤ .

(٤) الورقات لحسن حسنى ص ٢٦، ٣٢٥ .

(٥) الورقات حسن حسنى ص ٢٠٩ .

من يجيدون اللغة اللاتينية - ممن اتصلوا بالأجانب فى صقلية وغيرها، وعلى يد من استقدموا لترجمة كتب اليونان من الفلسفة والطب والنبات والجغرافيا ومن استقدموا من الشرق من الأطباء وعلماء الفلك وغيرهم وجاء بعض الأجانب وتعلموا فى مركز القيروان العلمى الطب والحساب والنجوم، وقد ترجمت بعض هذه العلوم من العربية إلى اللغات الأخرى فنقلت إلى إيطاليا وغيرها من البلاد الأوربية على يد بعض المترجمين العرب ممن يجيدون اللاتينية إلى جانب العربية فنقلوا علوماً مختلفة فى الطب والصيدلة والنبات والرياضة إلى اللغة اللاتينية، ومن ذلك ترجمة كتاب العناصر وكتاب الحدود والرسوم وغيرهما، وكتاب البارع فى الفلك والنجوم وغيرها من الكتب المختلفة [1].

(١) الحضارة العربية ١١٦، ١١٧.

الحياة السياسية فى مصر
فى عصر ابن خلدون

بدأت دولة المماليك باستيلاد شجرة الدر أم خليل على السلطنة فى مصر والشام سنة ٦٤٨هـ بعد موت زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب [١] واستمرت دولة المماليك قرابة ثلاثة قرون [٢] وقد تحدث ابن خلدون عن قيام هذه الدولة على أساس الإكثار من المماليك الذين كان الأيوبيون يجلبونهم ومن بعدهم سلاطين المماليك [٣] وكانوا يجلبونهم من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر فكانوا بذلك خليطاً من الأتراك والجراكسة والروم والروس فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية [٤] .

ويقول ابن خلدون : « انقسم ملك بنى أيوب بعده بين ولده وولد أخيه واستفحل أمرهم واقتسموا مدن الشام ومصر بينهم إلى أن جاء آخرهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر أخى صلاح الدين وأراد الاستكثار من العصابة لحماية الدولة وإقامة رسوم الملك وأن ذلك تحصل باتخاذ المماليك والإكثار منهم كما كان آخراً فى الدولة العباسية ببغداد، وأخذ التجار فى جلبهم إليه فاشترى منهم أعداداً وأقام لتربيتهم أساتيذ معلمين لحرفة الجندية من الثقافة والرمى بعد تعليم الآداب الدينية والخلقية [٥]

ثم أخذ ابن خلدون يتحدث عمن تولى الحكم من المماليك بعد شجرة الدر إلى أن عرض لعهد الظاهر برقوق الذى كان واليا على مصر إبان نزوله إليها إذ كان لم يمض

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ٣١٧ .

(٢) سقطت سنة ٩٢٣ على يد الأتراك العثمانيين .

(٣) التعريف ص ٣١٦ .

(٤) مصر فى العصور الوسطى د. على إبراهيم حسن ص ١٧٠ .

(٥) التعريف ص ٣١٦ .

على توليته الحكم إلا عشر ليال يقول : " لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر (برقوق) على التخت واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون [1]، وبرقوق هذا هو أبو سعيد برقوق بن أنس ويعرف ببرقوق العثمانى نسبة إلى فخر الدين عثمان بن مسافر تولى الملك عدة مرات فى المرة الأولى سنة ٧٨٤هـ وثار عليه يلبغا الناصرى وهو الأمير المعروف يلبغا بن عبد الله الخاصكى [2] ففر برقوق ثم سجن بالكرك ثم بالإسكندرية ثم عاد إلى ملكة فى سنة ٧٩٢هـ واستبد بالملك حتى مات سنة ٨٠١هـ [3]

وكان قد عهد إلى كبير أبنائه الناصر فرج [4] بالملك ولإخوته من بعده واحداً واحداً وأشهدهم على وصيته فيما أراد [5] وقد كان المماليك يعملون على تقوية جيوشهم التى تقف فى وجوه الأعداء داخلياً وخارجياً، وقاموا بإصلاحات داخلية وكل هذا كان يتطلب نفقات وأموالاً باهظة اعتمدوا فى تحصيلها على الضرائب وغيرها من وجوه تحصيل المال مما أدى إلى العسف والقهر [6] .

---

(١) التعريف ص ٢٤٦ .

(٢) الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٨ وانظر التعريف ص ٤٧ .

(٣) الخطط للمقريزى ط بولاق ٢/ ٢٤١ وما بعدها ، والعبر لابن خلدون ٥/ ٤٦٧ إلى ٤٧٢ ، والتعريف ص ٢٤٦ .

(٤) هو الملك الناصر أمين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر ، له ترجمة فى خطط المقريزى ٣/ ٣٩٢، ٣٩٣ ط مصر ، وانظر التعريف ص ٣٦٥ .

(٥) التعريف ص ٣٤٧ .

(٦) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٨ والسلوك ١/ ٩٢٠، وتاريخ ابن إياس ص ٣٢٦ .

الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية فى مصر

كان مجتمع مصر فى عهد المماليك كما يذكر المقريزى يتكون من سبعة أقسام : أهل الدولة وأهل اليسار من التجار والباعة وهم متوسطو الحال وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والفقهاء وأرباب الصنائع والمهن وذوو الحاجة والمسكنة، وكانت أحوال مصر مختلفة فى الجوانب الاقتصادية تبعاً لهذه الطبقات المتنوعة.

ويصف ابن خلدون القاهرة فيقول : " انتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والأواوين فى جوه وتضيء البدور والكواكب من علمائه قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ويجنى إليهم الثمرات والخيرات ثجه، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم، ومازلنا نحدث عن هذا البلد وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال (١) .

وقد كثرت الثقافات ونهض العلم فى مصر خلال الحكم المملوكى، وقد اهتم السلاطين بإنشاء المدارس والمساجد التى أصبحت منارات للإسلام والعلوم الإسلامية لا سيما بعد سقوط بغداد على يد التتار وهجرة العلماء منها إلى مصر والشام، وأصبحت مصر منتجع العلماء والوافدين إليها وتحققت لها الزعامة الدينية والعلمية، يقول ابن خلدون عن دولة المماليك خلال القرن التاسع : " واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع".

---

(١) التعريف ص ٢٤٦، ٢٤٧.

وكانت القاهرة عامرة بدور العلم والعلماء والمكتبات مملوءة بمجالس العلم والأدب، وقد اهتم الناس بالكتب بصورة عجيبة، ووفد إلى مصر علماء من المشرق والمغرب والأندلس كل ذلك يشير إلى ثراء الجانب الثقافى والعلمى فى مصر خلال هذا العصر، ولا عجب أن تترك هذه الحياة التى تعج بالعلم والعلماء آثارها فى الأدب وإذا كانت العربية ليست لغة الحكام فإنهم قد حافظوا عليها فى التعليم لأنها لغة الدين وهيئوا السبل للعلماء لإحياء التراث الإسلامى ولغته (١) .

---

(١) المقدمة ص ٥٤٥ .

التعريف بابن خلدون

اسمه ونسبه :

هو - كما ذكر - عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون .

وكما يقول ابن حزم : جدهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانيء بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر (١)

فنسبه - كما يقول ابن خلدون - فى حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب (٢)

ولعل خلدون هذا - كما يذكر الدكتور وافى - قد دخل الأندلس فى القرن الثالث الهجرى (٣) ويشكك د. وافى فى نسبة ابن خلدون إلى أصل عربى بحسب رواية ابن حزم السابقة لأمور ارتآها .

غير أنه يرجح - فى النّهاية - صحة نسب أسرته العربى الحضرمى لأدلة كثيرة (٤)

ويكنى أبازيد كما يقول المقريزى (فى يوم الإثنين تاسع عشر جمادى الثانية سنة ٦٨٧ هـ استدعى شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون إلى القلعة) (٥) ، ولعل له ابناً بهذا الاسم كنى به (٦) .

---

(١) التعريف ص ١ ، ٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون - الدراسة - ص ٣٩ .

(٤) السابق ص ٣٧ وما بعدها .

(٥) السلوك ص ١٣٢ والتعريف ص ٢٩ فى مرسوم من إملاء الوزير ابن الخطيب وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٢٢٤ .

(٦) مقدمة ابن خلدون - الدراسة - ص ٣٣ .

وقد ظهر لأسرته نباهة شأن فى أواخر القرن الثالث فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى (٢٧٤-٣٠٠ هـ) باشتراك أخوين لخلدون - هما كريب وخالد ابنا عثمان - فى الثورة مع حاكم اشبيلية آنذاك أمية بن عبد الغافر، كما سطع نجمهم فى عهد ملوك الطوائف باشتراك بعض زعمائهم فى موقعة الزلاقة حين انتصر ابن عباد، ومناصرة يوسف بن تاشفين على ملك قشتالة (٤٧٩هـ) - (١٠٨٦م)، كما اتصل بعضهم ببنى حفص - فى عهد الموحدين - وكانوا ملوكاً علي اشبيلية وغرب الأندلس ولما نزحوا عن اشبيلية (٦٢٠هـ) (١٢٢٣م)وتولوا حكم المغرب الأدنى قربوا بنى خلدون فكان الجد الثاني (أبو بكر محمد) متوليا بعض الشئون لدى الحفصيين، والجد الأول (محمد بن أبى بكر بن محمد) متوليا شئون الحجابة فى بجاية (توازي رتبة رئيس الوزراء الآن) [1] وقربه الأمير أبو يحيى بن اللحيانى (٧١١) وولاه الحجابة بعض الوقت-أيضاً - حينما استولى علي المغرب الأدنى من الحفصيين.

لكن والد ابن خلدون كان مشغولاً بالعلم كما يذكر ابن خلدون نفسه لأن أسرته أسرة علم . [2]

مولده ونشأته :

ذكر ابن خلدون فى كتابه التعريف - الذى ترجم فيه لنفسه ترجمة واسعة نقتبس منها القليل - أنه ولد بتونس فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وقد تلقي تعليمه مبتدئاً بحفظ القرآن الكريم وتجويده ومعرفة قراءاته، وتلقى علوماً كثيرة علي علماء أجلاء فى تونس التى كثر فيها العلماء فى كل العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام مالك - لأنه كان شائعاً هناك - والعلوم اللغوية كالنحو والصرف والبلاغة والأدب، وكل ذلك أخذه عن علماء ذكر كثيراً منهم فى كتابه وعرّف بهم وكان أبوه أيضاً من الذين استفاد من علمهم . [3]

---

(١) التعريف ص ٩٧ حيث يقول ابن خلدون : (ومعنى الحجابة - فى دولنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان ، وبين أهل دولته ، لا يشاركه فى ذلك أحد) وانظر مقدمة ابن خلدون - الدراسة - ص ٥٦ .

(٢) التعريف ص ٨ - ١٤ .

(٣) التعريف ص ١٥ وما بعدها إلى منتصف الكتاب .

وظائفه وتنقلاته داخل المغرب وخارجها :

مكث ابن خلدون يتلقى العلم منذ صغره حتى بلغ تقريباً سن الثامنة عشرة، وقد ظهر نبوغه وتفوقه مما جعل كثيراً من الحكام فى المغرب يستعينون به فى أعمال الكتابة والتوقيع والحجابة، فاستكتبه الوزير محمد بن تافراكين منذ أواخر سنة ٧٥١هـ (١٣٥٠) فى وظيفة تسمى كتابة العلامة وهى وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ مما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم [١] ويذكر ابن خلدون أن ابن تافراكين المستبد على الدولة بتونس يومئذ استدعاه لذلك، ولعل هذه العلامة تختلف عن علامة أخرى كانت توضع أسفل المكتوبات، وكان يقوم بها أستاذه أبو محمد بن عبد المهيمن الحضرمى الذى كان كاتباً للسلطان أبى الحسن المرينى [٢] ثم ترك العمل فى صحبة ابن تافراكين حين انتزع الحكم منه أبو زيد حفيد السلطان أبى يحيى الحفصى وأقام فى بسكرة وهى بلد معروفة بالجزائر وتتبع المغرب الأوسط. [٣]

وحينما جاء إلى الحكم السلطان أبو عنان اتصل به ابن خلدون فى تلمسان (قاعدة المغرب الأوسط) فعينه عضواً فى مجلسه العلمى بفاس فذهب إليها فى عام ٧٥٥هـ ثم عينه فى الكتابة والتوقيع، يقول فى ذلك ابن خلدون : " فقدمت عليه سنة خمس وخمسين ونظمنى فى أهل مجلسه العلمى وألزمنى شهود الصلوات معه، ثم استعملنى فى كتابته والتوقيع بين يديه [٤]، وهذا النوع من الكتابة والتوقيع هو ما يكون فى كتابة الأوامر والقرارات السلطانية [٥] ويذكر ابن خلدون أنه أفاد علماً كثيراً بلقاء المشيخة من أهل المغرب والأندلس الوافدين فى غرض السفارة فى ظل هذا الأمير، ويذكر أساتذة فى هذا الجانب أفاد منهم كثيراً فى مختلف التخصصات.

ويذكر ابن خلدون تحت عنوان «حدوث النكبة من السلطان أبى عنان» أن الجو

---

(١) التعريف ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٣) التعليق ٢ ص ٥٧ من التعريف .

(٤) التعريف ص ٥٨, ٥٩ .

(٥) انظر التعليق فى مقدمة ابن خلدون - الدراسة - للدكتور وافى ص ٥٤ .

تكدر عند أبى عنان بعد صفاء لاتصال ابن خلدون بالأمير أبى عبد الله محمد الحفصى صاحب بجاية الذى خلعه السلطان أبو عنان وأسره وظن أبو عنان أن ابن خلدون يتآمر ضده فقبض على ابن خلدون وأدخله السجن سنة ٧٥٨هـ، يقول ابن خلدون : « فقبض عليّ وامتحننى وحبسنى وذلك فى ثامن عشر صفر سنة ثمان وخمسين » وبقى عامين فى السجن وأخذ يستعطفه بقصيدة طويلة يذكر أنها بلغت نحو مائتين بيتاً وأنها ذهبت من حفظه ولم يبق منها إلا القليل [١] . ولما استبد الوزير الحسن بن عمر بالسلطان بعد موت أبى عنان أطلق سراح ابن خلدون، يقول: «وبادر القائم بالدولة الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين كنت فيهم»، ثم أكرمه كما يقول وكتب له [٢]، ولما جاء إلى الحكم أبو سالم بن أبى الحسن أخو أبى عنان (استعمل ابن خلدون فى كتابة سره والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته) وكان أكثرها يصدر عنه بالكلام المرسل [٣] . وقد تفتقت شاعريته فى ظلال هذا السلطان وقدم إليه بعض قصائده وقد ولاه هذا السلطان خطة المظالم، ويقول ابن خلدون فوفيتها حقها [٤] وهى وظيفة كما يقول ابن خلدون : ممتزجة من سطوة السلطة ونصفة القضاء . . . وكأنما يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه . . . وذلك أوسع من نظر القاضى وربما كان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهدى من بنى العباس » [٥]

وفى قصيدة له أنشدها السلطان أبا سالم حين وصول هدية ملك السودان إليه يذكر نزوله بهذا السلطان وأنه أكرم وفادته لما فيه من خصال حميدة وأصالة تجعله يفوق غيره من الملوك ويصف الشاعر ما تحمله من جهد حتى وصل إليه فوجد فى ساحته كل الخير إذ أشبع رغباته بعد تعب ووجد فى رحابه العز وحسن العطاء وأن أيادى السلطان عليه كثيرة، وقد نال الحظوة فى جواره ووصف الخيرات التى نالها

---

(١) التعريف ص ٦٦ ، ٦٧ .
(٢) التعريف ص ٦٨ .
(٣) التعريف ص ٧٠ .
(٤) التعريف ص ٧٧ .
(٥) المقدمة طبعة البيان ج ٢ ص ٥٧١ .

والمناصب التي تولاها بأنها جعلته في جنة يأكل من ثمارها ويشرب من كوثرها ويعل، وقد تحققت جميع آماله وأمجاده في رحاب هذا السلطان، وينادي في الناس ويرسل صيحاته كي يبلغوا قومه في تونس وبينه وبينهم مسافات بعيدة بأنه قد وصل إلى ما تصبو إليه نفوسهم من رجاء وأصبح في عز يشرفهم جميعاً يقول :

لِـلَّه مِنِّـي إذْ تَـأَوبـنـي
ذِكْـرَاهُ وَهْـوَ بِشَـاهِقٍ فَـرْدِ
شَـهْـمٌ يَفُـلُّ بَـوَاتِـراً قُـضُبَـا
وَجُـمُـوعَ أَقْـيَـالٍ أُولِـى أَيْـدِ

أَوْرَيْـتُ زَنْـدَ الْعَـزم فِـى طَلَبِى
وَقَـضَـيْتُ حَـقَّ الْمَـجْدِ مِنْ قَـصْدِى
وَوَرَدْتُ عَـنْ ظَـمَـأ مَـنَـاهِـلَـهُ
فَـرَوِيتُ مِـنْ عِـزٍّ وَمِـنْ رِفْـدِ
هِيَ جَنَّـةُ الـمَـأْوَى لِمَنْ كَلِفَـتْ
آمَـالُهُ بِـمَـطَالِبِ الْمَـجْـدِ
لَـوْ لَـمْ أعـلَّ بِـوِرْدِ كَـوْثَرِهَا
مَـا قُلْـتُ هَـذِى جَنَّـةُ الْخُلْـدِ
مَـنْ مُـبْلِغٌ قَـوْمِي وَدُونَهُـمُ
قُـذُفُ النَّوَى وَتَنُوفَـةُ الْبُـعْـدِ

أنّـى أنفـتُ علَـى رجَـائـهـمُ

ومَلَكتُ عِـزَّ جَمِـيعهِـمْ وَحْدِى [1]

وبذلك يكون ابن خلدون قد وصل إلى منزلة سامية لدى الأمير أثارت حقد بعض الناس عليه مثل الفقيه ابن مرزوق الذى سعى بالوشاية بينه وبين الأمر أبى سالم كما يذكر ابن خلدون [2]، وفى عهد تاشفين بن أبى الحسن استبد الوزير عمر بن عبد الله بالسلطة وحدثت جفوة بينه وبين ابن خلدون مما جعل ابن خلدون يقعد عن دار السلطان مغاضباً له فتنكر له الوزير وأعرض عنه فطلب ابن خلدون الرحلة إلى بلده بتونس واستشفع بالوزير مسعود بن رحّو بن ماساى ومدحه بقصيدة مستعطفاً حتى أذن له الوزير عمر بن عبد الله فى السفر فغير اتجاهه وصرف وجهته إلى مملكة غرناطة بالأندلس [3] بناء على ما أخذه عليه الوزير عمر بن عبد الله من عدم التوجه إلى تلمسان [4] ووجه ابن خلدون أولاده وأمهم إلى أخوالهم بقسنطينة ثم سار ابن خلدون إلى سبتة [5] فى أوائل سنة (٧٦٤هـ) ونزل على الشريف أبى العباس أحمد بن الشريف الحسنى فأكرمه وأنزله بيته إزاء المسجد الجامع ثم حط بجبل الفتح [6] ثم خرج منه إلى غرناطة وكتب إلى السلطان عليها حينئذ محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر [7] وإلى وزيره لسان الدين بن الخطيب وجاءه قبل أن يصل إليها ببريد واحد كتاب بن الخطيب يهنئه بالقدوم ويؤنسه وذلك لما كان بين ابن خلدون وبين الأمير ووزيره ابن الخطيب من صلة وثيقة من قبل، ويقول ابن

(١) التعريف ص ٧٥ .

(٢) التعريف ص ٧٦ .

(٣) التعريف ص ٧٧-٧٩ .

(٤) مدينة بالمغرب الأوسط بالجزائر (مقر أبى حمو) .

(٥) مدينة ساحلية من مدن المغرب الأقصى - انظر التعليق (١) بكتابه التعريف ص ١١

(٦) هو جبل طارق بن زياد .

(٧) التعريف ص ٤٢ , ٩٢ .

خلدون : وقد اهتز السلطان لقدومى وهيأ لى المنزل من قصوره. . . وخرج الوزير ابن الخطيب فشيعنى إلى مكان نُزُلى ثم نظمنى فى علية أهل مجلسه[1] ثم أرسله السلطان ليكون سفيراً بينه وبين ملك قشتالة فى العام التالى(٧٦٥هـ) وقد حاول ملكها إغراءه بالبقاء عنده لكنه لم يستجب لذلك وقد استقدم ابن خلدون أسرته وأنشد القصائد فى رحاب هذا السلطان الأندلسى، وقد عبر ابن خلدون عما لقى فى رحاب سلطانها ابن الأحمر من التقدير والحفاوة فى قصيدة له إلى السلطان يقول :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّىَ الصَّحْبَ الألَى تَرَكُوا
وُدِّى وَضَاعَ حِمَاهُمْ إِذْ أَضَاعُونِى

أَنِّى أَوَيْتُ مِنَ العَلْيَا إِلَى حَرَمٍ
كَادَتْ مَغَانِيهِ بالبُشْرَى تُحَيِّينِى

وَأَنَّنِى ظَاعِنًا لَمْ أَلْقَ بَعْدَهُمُ
دَهْراً أُشَاكِى وَلاَ خَصْمًا يُشَاكِينِى

لاَ كَالَّتِى أَخْفَرَتَ عَهْدِى لَيَالِىَ إِذْ
أُقَلِّبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الخَوْفِ وَالهُونِ [2]

وهو يعبر بهذا عن الليالى البائسة التى قضاها مع الوزير عمر بن عبد الله فى المغرب وأنه كان فى أخريات أيامه هناك فى ذل وهوان وقد أصبح فى عز ومنعة فى جوار ابن الأحمر بالأندلس .

---

(١) التعريف ص ٨٠-٨٤ .

(٢) التعريف ص ٨٧ .

وكانت فترة طيبة فى حياة ابن خلدون غير أنه لم يلبث أن حدثت جفوة بين ابن خلدون والوزير ابن الخطيب أدت إلى تركه الأندلس، وقد عاد ابن خلدون إلى بجاية التى كان قد استرد عرشها أبو عبد الله محمد الحفصى منذ سنة ٥٦٧ هـ فولاه وظيفة الحجابة وهى تعادل رتبة رئيس الوزراء [١]

يقول ابن خلدون : «وكتب لى الأمير أبو عبد الله بخطه عهداً بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه ثم كان ما قدمته من انصرافى إلى الأندلس، والمقام بها إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب، وأظلم الجو بينى، وبينه، وبينا نحن فى ذلك وصل الخبر باستيلاء الأمير أبى عبد الله على بجاية من يد عمه فى رمضان سنة خمس وستين، وكتب الأمير أبو عبد الله يستقدمنى . . إلخ»[٢].

ولم يطع ابن خلدون من حاولوا معه أن يخرج على السلطان أبى العباس أحمد الحفصى صاحب قسنطينة الذى استولى على الحكم فى بجاية وهزم ابن عمه أبا عبد الله محمداً الحفصى سنة ٧٦٧هـ ومشى فى ركاب السلطان الجديد يقول : «وجاءنى الخبر بذلك - يعنى باستيلاء أبى العباس على الحكم وقتل أبى عبد الله الحفصى - وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره، وطلب منى جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان فتفاديت من ذلك وخرجت إلى السلطان أبى العباس فأكرمنى وحيانى »[٣] ثم انتقل ابن خلدون إلى بسكرة وأقام عند واليها الذى كانت بينه وبينه صلة، وقد حاول أبو حمو والى تلمسان إغراء ابن خلدون بتوليته الحجابة ليعمل على شد أزره ومعاونته على القضاء على أبى العباس أحمد الوالى الجديد لبجاية لكن ابن خلدون اعتذر عن عدم قبوله الوظيفة، ومع ذلك عمل على الترويج له عند القبائل التى خرجت لمعاونة عسكر أبى حمو ضد عسكر أبى العباس لكن قوات أبى حمو هزمت، وعاد ابن خلدون بعد ذلك إلى بسكرة، ثم استمر ابن خلدون فى دعوته لأبى حمو ثم أسقط السلطان عبد العزيز بن

---

(١) التعريف ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) التعريف ص ٩٧ . ٩٧ .

(٣) التعريف ص ٩٩ .

أبى العباس بن أبى سالم المرينى سلطان المغرب الأقصى مملكة أبى حمو فى تلمسان سنة ٧٧٢ هـ كما ذكرت من قبل .

وقد أكرم السلطان عبد العزيز ابن خلدون بعد أن توسط له بعض الناس واعتذروا له عن صلته بأبى حمو بل عمل ضد صديق الأمس أبى حمو مع السلطان عبد العزيز ثم مكث عند أسرته أياماً فى بسكرة واتجه منها إلى تلسمان فأحسن السلطان عبد العزيز وفادته ثم انتقل هو وأسرته إليها بعد إيغار صدر أمير بسكرة عليه، ولما عاد أبو حمو إلى استرداد تلمسان بعد وفاة عبد العزيز بن أبى العباس المرينى انتقم من ابن خلدون بمضايقات كثيرة فانتقل من تلمسان هو وأسرته إلى فاس وأكرم مثواهم الوزير ابن غازى وزير السلطان أبى العباس المرينى وابنه السعيد من بعده وقد عكف على قراءة العلم وتدريسه [1]

ثم أسقط السلطان أبو العباس أحمد الحفصى حكم السعيد بن عبد العزيز المرينى فى المغرب الأقصى سنة ٧٧٦هـ، وقد ذهب ابن خلدون مرة ثانية إلى الأندلس ونزل بمملكة غرناطة فى ربيع سنة ٧٧٦هـ إلا أنه رد إلى المغرب ولم يجد بدا من أن يعود إلى تلمسان بعد استعطاف السلطان أبى حمو - بعد ما جرى بينهما من عداوة وشحناء - وقد استشفع ابن خلدون لدى أبى حمو ببعض ذوى الشأن فقبل عذره وعفا عنه فعاد إلى تلمسان ودخلها فى عيد الفطر سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م)

ولم يطب له المقام فى تلمسان لأنه أراد أن يتفرغ للعلم والتأليف فانتقل إلى بنى عريف فكرمت إقامته عندهم فنزل فى (قلعة ابن سلامة) من بلاد توجين [2]، واستقدم أسرته إليه ومكث أربع سنوات هادئة اشتغل خلالها بتأليف كتاب (العبر) ومقدمته الشهيرة التى جمعت علوماً كثيرة ووضعته فى مصاف علماء الاجتماع نتيجة خبراته الكثيرة وتطوافه فى البلاد التى أفاد منها علماً وخبرة .

ثم عاد من عريف وقلعة ابن سلامة متجهاً إلى مسقط رأسه تونس فى شهر رجب سنة ٧٨٠هـ وعليها السلطان أبو العباس أحمد الحفصى حاكم قسنطينة الذى استولى

---

(١) التعريف ص ٢٢٤ .

(٢) التعريف ص ٢٢٨ .

على بجاية من ابن عمه منذ سنة ٧٦٧هـ فلقيه فى سوسة [١] وقد أكرمه السلطان وهيأ له ولأسرته مقاماً طيباً فى بلده تونس التى غاب عنها زمناً طويلاً فلم يدخلها منذ فارقها سنة ٧٥٣هـ، وقد تهيأ له الجو للتدريس والتأليف فانتهى من تأليف نسخة من كتابه (العبر) [٢] ورفعه إلى السلطان أبى العباس أحمد الحفصى فى رمضان سنة ٧٨٤هـ [٣] (أوائل عام ١٣٨٢م) وهى ما يطلق عليه (النسخة التونيسية) وقد حيا ابن خلدون السلطان أبا العباس مع إهداء الكتاب إليه بقصيدة شعرية .

ومنها فى إهداء الكتاب قوله :

وإليْكَ مِنْ سِيَر الزَّمانِ وأهْلِه
عِبَراً يَدِينُ بِفَضْلِهَا مَنْ يَعْدِلُ
صُحُفاً تُتَرْجِمُ عَنْ أَحَاديث الأُلَى
عَبَرُوا فَتُجْمِلُ عَنْهُمُ وتُفَصِّلُ
تُبْدِي التَّتَابِعُ والعَمَالِقُ سِرَّهَا
وثمودُ قَبْلَهُمُ وَعَادُ الأُوَّلُ
وَالقَائِمُونَ بِملَّةِ الإِسْلامِ مِنْ
مُضَرٍ وبَربَرِهِمْ إذَا مَا حُصِّلُوا
لَخَّصْتُ كُتْبَ الأوَّلِينَ لِجَمْعِهَا
وأتَيْتُ أوَّلَهَا بِمَا قَدْ أغْفَلُوا

---

(١) مدينة معروفة بتونس . التعريف ص ٢٧ .

(٢) قال ابن خلدون : « أكملت منه أخبار البربر وزناتة وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلىّ منها وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته . التعريف ص ٢٣٣ .

(٣) التعريف ص ٢٤٨ .

وأَلَنتُ حُوشِيَّ الكلامَ كأنَّما
شُرُدُ اللُّغَاتِ بها لِنُطقِي ذُلَّلُ
أَهْدَيْتُ مِنْهُ إلى عُلاَكَ جواهراً
مَكْنُونةً وكَوَاكِباً لاَ تَأفُلُ
وجَعَلْتُهُ لِصِوانِ مُلكِكَ مَفْخراً
يبأى النَّدِيُّ بِهِ وَيزْهُو المَحْفِلُ[1]

وقد أكمل ابن خلدون كتابه بعد سفره إلى مصر، وقد ودع ابن خلدون المغرب فركب إلى الإسكندرية سفينة سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) بعد أن قضى ثمانى سنوات فى التدريس والتأليف، وقد وصل الإسكندرية فى عيد الفطر سنة ٧٨٤هـ (نوفمبر سنة ١٣٨٢م) ويقول : «فأقمت فى الإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة»، وقد أكرمه أهل القاهرة وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة [2]

وقد ولاه الظاهر برقوق [3] مهمة تدريس الفقه المالكى بمدرسة القمحية وشهد مجلسه جمهرة من كبار العلماء [4] ثم ولاه منصب قاضى قضاة المالكية بعد القاضى جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير المالكى فى التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ [5]

وكان منصب قاضى قضاه المالكية رابع أربعة بعدد المذاهب يدعى كل منهم قاضى القضاة، فإلى جانب قاضى قضاة المالكية يوجدقاضى قضاة الحنفية، وقاضى قضاة

---

(١) التعريف ص ٢٤٠ .

(٢) الضوء اللامع ٤/١٤٦ .

(٣) جلس على كرسى سلطنة مصر تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين (وسبعمائة) وتلقب بالظاهر ، وانقلبت الدولة من آل قلاوون إلى برقوق الظاهر وبنيه . التعريف ص ٣٢٥.

(٤) التعريف ص ٢٨٠-٢٨٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

الحنابلة، وقاضى قضاة الشافعية، وكان قاضى قضاة المالكية مقدماً على غيره وقد أثارت توليته هذا المنصب حسداً عليه .

ونكب بغرق أولاده وزوجته وأمواله فى السفينة التى حملتهم وهى فى مرسى الإسكندرية بعد قدومها من تونس وضاعت كتبه وماله .

وقد ترك منصب القضاء سنة ٧٨٧هـ [١] ثم عين أستاذاً للفقه المالكى فى المدرسة الظاهرية البرقوقية سنة افتتاحها ٧٨٨هـ ثم طلب من السلطان إعفاءه من التدريس بها بعد ذلك تحت تأثير الوشاة وأهل الدس [٢] وقد أدى الحج سنة ٧٨٩هـ ورجع سنة ٧٩١هـ [٣] ثم شغل أستاذ كرسى الحديث بمدرسة ضرغتمش وعين بعد ذلك بثلاثة أشهر - فى ٢٦ من ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ شيخاً لخانقاه بيبرس [٤].

وقد عزل عنها ثم أعيد ثم عزل نتيجة الوشاية به والتوقيع على فتوى ضد برقوق، وقد تحدث ابن خلدون عن هذه الفتوى التى كانت تجيز قتال برقوق وبين أن الفقهاء أكرهوا على كتابتها، وذكر شعراً له رفعه إلى من يتوسط له للعفو عنه لدى السلطان[٥]

ثم أعيد إلى منصب قاضى قضاة المالكية فى النصف الثانى من عام ٨٠١هـ، وقد سافر لزيارة بيت المقدس [٦] ثم عزل عن منصب قاضى قضاة المالكية مرة أخرى فى منتصف المحرم سنة ٨٠٣هـ - بعد قرابة ثلاثة أشهر من عودته من القدس .

وقد التقى بتيمور لنك حين جاء إلى الشام بجيوشه وله معه مقتضى وأحوال [٧]، وقد ولى منصب قاضى القضاة بعد ذلك أربع مرات بين تولية وعزل من سنة ٨٠٣ - ٨٠٨ هـ بتأثير خصومه والحاقدين عليه .

---

(١) التعريف ص ٢٥٩ الأصل والتعليق .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٣٠-٣٣١ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٤٩, ٣٥٠ .

(٧) المصدر السابق ص ٣٦٥ وما بعدها .

وفـاته :

كانت وفاته - رحمه الله - فى ٢٦ من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ من مارس ١٤٠٦ م) عن ستة وسبعين عاماً .

ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية الآن) [(١)]

أهم مؤلفاته :

لابن خلدون مؤلفات كثيرة تدل - كما قال د. على عبد الواحد وافى - على نبوغه فى نواح كثيرة فهو المنشىء الأول لعلم الاجتماع، وهو الإمام المجدد فى علم التاريخ وفى فن الاتوبيوجرافيا (ترجمة المؤلف لنفسه) وهو إمام مجدد فى بحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوى والتعليمى، وهو راسخ القدم فى علوم الحديث وفى الفقه المالكى، ولم يغادر أى فرع من فروع المعرفة إلا ألم به [(٢)] .

وأهم آثاره فى التاريخ كتاب العبر الذى قدم له بمقدمة وضعته فى مصاف علماء الاجتماع بل فى صدارتهم، واسم الكتاب : (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر)، وله فى الكتاب نهج جديد يختلف عن نهج كثير ممن كتبوا فى التاريخ من قبل [(٣)] .

أما كتاب التعريف فاسمه : (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) فهو نوع آخر من الدراسة التاريخية تتمثل فى ترجمة المؤلف لنفسه، وقد حققه محمد بن تاويت الطنجى وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م، وكما يذكر الدكتور وافى : سبق ابن خلدون فى هذا الفن من التأريخ كثير من مؤرخى العرب وأدبائهم كياقوت الحموى فى كتابه (معجم الأدباء)، وابن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) وابن حجر معاصر ابن

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) مقدمة ابن خلدون . الباب الثانى من الدراسة ص ١١٥ .

(٣) المقدمة ص ١٢٠ .

خلدون فى كتابه (رفع الإصر عن قضاة مصر) ولكنها ترجمات موجزة، أما ابن خلدون فهو أول باحث عربى يكتب عن نفسه ترجمة رائعة مستفيضة [(١)] .

ويقول محقق الكتاب : «لقد عرفت ابن خلدون من هذا الكتاب على الصورة التى أراد أن يتصوره عليها الناس، وقد قرأت بعد ذلك ما كتبه عنه معاصروه ومن تبعهم فوجدت صورة أخرى غير التى عرفتها منه، وهو اختلاف يثير الرغبة فى تعرف أسباب الموافقة، ودواعى الخلاف [(٢)]، ويقع هذا الكتاب فى أربع وثمانين وثلاثمائة صفحة غير الفهارس تحدث فيه ابن خلدو عن نفسه، من حيث أسرته وأصلها، ومن حيث نشأته ومشيخته، وحاله وأطوار حياته، وتنقلاته، ورحلاته فى المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وبلاد الأندلس ومصر، وتحدث عن جوانب تاريخية كثيرة متعلقة بهذه المناطق التى تنقل فيها، وعن مظاهرها السياسية والاجتماعية، والعلمية، وكان يدخل فى تفصيلات دقيقة والتأريخ للشخصيات من شيوخه أو أصدقائه، وعرض الجوانب العلمية لمسيرتهم، وهذا الكتاب هو ذخيرة لشخصية ابن خلدون المتعددة الألوان والوجوه، ولا سيما فى الجانب الذى أنا بصدده وهو الحديث عن شخصيته الشعرية، فقد عرفت من خلاله اشتغاله بالشعر وهو فن من فنون الأدب الذى كان له فيه باع طويل وأدركت العوامل المؤثرة التى كان لها عميق الأثر فى شاعريته .

ويضم الكتاب عديداً من القصائد الشعرية التى قالها فى مناسبات سأذكرها فى الحديث عن شعره، كما يضم شعراً لغيره من الأساتذة والأصدقاء ومن التقى بهم من العلماء والأدباء مما كان له أثر فى شاعريته .

ويذكر الدكتور وافى أن الكتاب يعد ذخيرة فى الفن التاريخى الذى اشتهر باسم الاعترافات كاعترافات الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال واعترافات جان جاك روسو فى كتابه الاعترافات [(٣)]، وأرى أن الفرق شاسع بين ما أطلق عليه اسم

---

(١) المقدمة ص ١٢٣ .

(٢) مدمة المحقق لكتاب التعريف - الصفحة الأولى .

(٣) د. وافى : المقدمة - الدراسة - ص ١٢٣ .

الاعترافات عند علمائنا ومفكرينا، وبين ما يسمى الاعترافات عند جان جاك روسو وغيره من الغربيين لأن السير الذاتية عند علمائنا تحتوى على مالا يجافى الأخلاق والمبادئ والقيم، أما ما يذكره ويعترف به جان جاك روسو وأضرابه من مفكرى الغرب فيشتمل على ما ينافى القيم، ولا يتحرج من ذكر أمور سيئة من العادات والتقاليد التى لا يقرها الدين الصحيح .

وقد كان هذا الكتاب يمثل الجزء الأخير من كتاب العبر قبل أن يفصله المحقق فى كتاب خاص .

ويهمنى مما أورده فى المقدمة التى تشتمل على فنون كثيرة ما ذكره من بحوث خاصة بمفردات اللغة، ومدلولاتها وعلوم العربية وقواعدها وآدابها إذ كل ذلك له أثر فى تكوينه الأدبى، وفى نبوغه وشاعريته، فهو لم يترك أى فرع من فروع اللغة العربية إلا تكلم فيه .

وهو يذكر فى كتابه التعريف أنه درس أمهات المؤلفات فى اللغة العربية، ففى النحو قرأ كتاب التسهيل لابن مالك، وشرح الحصايرى عليه، كما قرأ على مشايخه المعلقات، وكتاب الحماسة للأعلم الشنتمرى، وديوان أبى تمام وبعض شعر المتنبى، وقرأ كتاب الأغانى، كل ذلك وغيره درسه على أساتذة ذكرت بعضهم من قبل، ولابد أن هذه الإحاطة بمواد العربية وعلومها قد فتحت ذهنه ليكون أحد الشعراء المجيدين .

والقصائد التى عثرت عليها فى كتابه التعريف تمثل قدراً كبيراً مما يلقى ضوءاً على شعره من الناحية الفنية والأدبية، وسأتناول هذه القصائد بالمعالجة الأدبية والدراسة الفنية لأتعرف منها على قيمة شعره واتجاهاته حتى أخرج بالنتيجة العلمية والنقدية من خلاله .

شاعريته

يذكر ابن خلدون ثلاثة مراحل مر بها فى مسيرته الشعرية :

الأولى : مرحلة البدء فى قول الشعر، وهو وإن لم يذكر ذلك صراحة فإننا نجد مفتتح شعره قصيدته التى مطلعها :

عَلَى أَىِّ حَالٍ لِلَّيَالِى أُعَاتِبُ
وَأَىّ صُرُوفٍ لِلزَّمَانِ أُغَالِبُ (1)

وقد ذكر ابن خلدون أنها طويلة نحو مائتين بيتاً لكنها ذهبت عن حفظه، وقد ذكر منها ابن الأحمر فى كتابه نثير الجمان مائة وسبعة أبيات.

ولكنها - كما سأتناولها - بالتحليل والدراسة والبحث - سليمة البحر والقافية وهى متماسكة النسج فى معظم أبياتها مما يدل على أنها لا تمثل بدء القول فيه بل ربما سبقتها محاولات جعلته يصل بها إلى وضع قدمه على سلم الشعر الذى يمكن أن يعلن على الجمهور ويؤثر فى سامعيه، ولا سيما أنه قدم هذه القصيدة فى أواخر سنة ٧٥٩هـ إلى السلطان أبى عنان - وهو فى السجن - يستعطفه، وأثرت فى السلطان حتى وعد بالإفراج عن الشاعر لولا أن المرض فاجأ السلطان فتوفى، يقول: « فكان لها منه موقع وهش لها، وكان - يعنى السلطان أبا عنان - بتلمسان فوعد بالإفراج عنى عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقه الوجع وهلك» (2) وهذه المدة من العمر كافية لأن يكون قد قدم فيها الكثير من القصائد وهى فترة خصب الموهبة

(١) التعريف ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧، ٦٨ .

الشعرية وتفتقها وإغزارها، ومما يدل على سبق محاولات النتاج الشعرى لهذه القصيدة قوله فيها :

أمَولاى طابَ القولُ لى فأطلتُه
وما طيِّبَ الأقوال إلا الأطايبُ

وماكانَ لى نعمَ القريضُ بطاعة
ولكنْ دعانى نحو مدحِك جَاذِب

فجئتُ بها حسناءَ تلتمسُ الرِّضا
وإن رَغِمَ الواشُون فيها وشاغِبُ

وعلى كل حال فهذه القصيدة تعد أولى القصائد التى وردت من شعره فى كتابه التعريف مما جعل الأنظار تتجه إلى القول بأنها مفتتح شعره الذى يعتد به، وتمثل المرحلة المتقدمة من محاولاته الشعرية الناجحة.

المرحلة الثانية، مرحلة المراس والإجادة : تمثلها قصائد قالها منذ تولية السلطان أبى سالم بن االسلطان أبى الحسن وهو أخ السلطان أبى عنان من حين دخل إلى دار ملكه منتصف شعبان سنة ستين وسبعمائة واستعمل ابن خلدون فى كتابة سره والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته، يقول ابن خلدون : " ثم أخذت نفسى بالشعر فانثال علىّ منه بحور توسطت بين الإجادة والقصور، وكان مما أنشدته إياه ليلة المولد النبوى من سنة ثنتين وستين وسبعمائة :

أسْرَفن فى هجْرى وفى تعذيبى
وأطلْنَ مَوْقفَ عَبْرتى ونَحيبى

ولعله يقصد من أخذه نفسه بالشعر مراسه به واشتغاله بإنشائه وإنشاده وقضاء بعض وقته فيه كالمتفرغ له لما وجد أنه يطاوعه، وينال إعجاب من يقال فيهم ولهم من سامعيه.

والذى يجعلنى أفهم ذلك أن المدة التى تفصل بين قوله لقصيدته فى أبى عنان وما قاله فى أبى سالم ليست طويلة فهى لا تتعدى سنتين أو أكثر قليلاً.

لكن تهيئة الجو النفسى للشاعر - فى ظلال الحياة السعيدة - عند أبى سالم جعلت لسانه ينطلق بالشعر وتغريده.

وذكر فى كتابه التعريف - إلى جانب هذه القصيدة - قصيدة أخرى يمدح فيها أبا سالم - أيضاً - عند الترحيب بوفد السودان الذى حمل هدية إلى السلطان من ملك السودان رداً على هدية السلطان إليه ومطلعها :

قَــدَحَــتْ يَدُ الأَشْــواقِ مِــنْ زَنْدِى
وهَفَــتْ بِـقلْــبِى زَفْــرةُ الوَجْــدِ

وأنشد قصيدة ثالثة فى الاستعطاف للوزير مسعود بن رحو بن ماساى مطلعها :

هَنِيــئــاً بِصَــوْمٍ لاعَــدَاهُ قَــبُــولُ
وبُشْــرَى بِعِــيــدٍ أنْــتَ فِــيــهِ مُنِيلُ

وتستمر شاعريته فى التدفق خلال حياته فى مملكة غرناطة فى الأندلس، وبدء حياة سعيدة أخرى هناك تجعله يفيض فى مدح الأمير محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر، وأنشد القصائد فى رحابه منها قصيدته التى أنشدها بعد عودته من السفارة إلى الطاغية ملك قشتالة وكانت بمناسبة المولد النبوى والاحتفال فى الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعراء، وهو بذلك قد شارك غيره من الشعراء فى إنشاد قصيدته التى مطلعها :

حَيِّ المعَــاهِدَ كــانَتْ قَــبْلُ تُحيِــينِى
بِوَاكِفِ الــدَّمْعِ يُروِيهَــا ويُظْمِــينِى[1]

---

(١) ذكر الدكتور وافى أنه أنشد هذه القصيدة سنة ٧٦٤ وليس كذلك.

كما أنشد هذا السلطان سنة خمس وستين قصيدته فى إعذار ولده أى ختان ولديه والصنيع الذى احتفل لهم فيه ودعا إليه الجفلى من نواحى الأندلس ومطلعها :

صَحَا القَلْبُ لَوْلاَ عَبْرَةٌ ونَحيبُ
وذِكْرَى تُجدُّ الوَجْد حينَ تَثُوبُ

وثالثة أنشده إياها ليلة المولد الكريم من هذه السنة مطلعها :

أَبَى الطَّيْفُ أَنْ يعتَادَ إلاَّ تَوَهُّمَا
فَمَنْ لِى بأَنْ ألقَى الخَيَالَ المُسَلِّمَا

وقد وصف شعره فى أيام نزوله عند ابن الأحمر فى حفاوة وإعزاز فقدم شعره ثناء ومدحاً لهذا السلطان الذى عم فضله الشاعر، ففى قصيدته الدالية يمجد الليالى الجديدة فى جوار هذا السلطان داعيا لها بالسقيا والرعاية لتحقق آماله، ويصف القوافى المرفوعة إلى السلطان بأنها كزهور الرياض العاطرة بل إنها كالدر المتلألئ وإنه يبعثها إلى الممدوح ابتهاجاً به، وثناء عليه، وإنها لم تأت من فراغ ودون تجربة بل بذل فيها الجهد لتواتيه القريحة فى ظلال السعد الذى يعيش فيه، فكانت الأفكار تكاد أن تضل منه نتيجة لما كان يعتريه فى مراحل حياته السابقة قبل النزول فى كنف الممدوح من حزن مكتوم ضاق به الصدر، لكن ما كادت السعود تحيط بالشاعر حتى خضعت القوافى له وجاءت فى أبهى حلة وزينة يقول :

سَقْياً ورَعْياً لأيَّامِى الَّتى ظَفَرتْ
يداىَ مِنْهَا بِحَظٍّ غيرِ مَغْبُونِ
أرْتَادُ مِنْهَا مَلِيّا لاَ يُمَاطِلُنى
وَعْداً وأرْجُو كَرِيماً لاَ يُعَنِّينِى

وَهَاكَ مِنهَـا قَـوَافٍ طَيّـهَا حِكَـمٌ

مِـثْـلُ الأَزاهِـرِ فى طىِّ الرَّيـاَحِينِ

تَـلـوحُ إنْ جُـلِيَـتْ دُرّاً وإنْ تُـلِـيَتْ

تُثْـنى عَلَيْكَ بأنـفـاسِ البَسَـاتِـينِ

عَـانَيْتُ مِـنْهـا بِجَـهْـدِى كُلَّ شَـارِدَةٍ

لولاَ شُـعُـورُكَ مـا كَـادَتْ تُواتِـينِى

يُمَـانِعُ الفِكْرَ عَنْـهَـا مَـا تَـقَـسَّـمَـهُ

مِنْ كُلِّ حُـزْنٍ بطىِّ الصَّـدْرِ مَكْنُونِ

لـكِنْ بِـسَـعْـدِكَ ذَلَّتْ لى شَـوارِدُهَا

فَـرُضْتُ مِنْهـا بِتَـحْـبِـيرٍ وتَـزِيِـينِ [1]

المرحلة الثالثة : مرحلة تركه الشعر واتجاهه إلى العلم واشتغاله بإخراج مؤلفاته وذلك حينما عاد إلى موطنه الأصلى تونس وعاش زمناً فى رحاب سلطانها أبى العباس أحمد الحفصى وأكرمه السلطان وأحسن إليه .

ويقول ابن خلدون : " إننى لما قدمت تونس انثال على طلبة العلم من أصحابه وسواهم يطلبون الإفادة والاشتغال وأسعفتهم بذلك »

وكان السلطان قد كلف ابن خلدون بالإكباب على تأليف كتابه (العبر) فأكمل منه بعض الأخبار [2] .

ويذكر ابن خلدون أن بعض الوشاة سعوا به عند السلطان بأنه لا يمدحه بشعره فيقول : «وكان مما يغرون به السلطان علىّ قعودى عن امتداحه وأنى كنت قد أهملت

---

(١) التعريف ص ٨٧، ٨٨.

(٢) التعريف ص ٢٣٣ .

الشعر وانتحاله جملة وتفرغت للعلم فقط فكانوا يقولون له : إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه للملوك قبلك»، ورداً منه على الوشاة عاود قول الشعر يمدح السلطان ويهدى إليه نسخة من كتابه (العبر) فيما أنجزه منه يقول :

" فلما رفعت له الكتاب وتوجته باسمه أنشدته ذلك اليوم هذه القصيدة أمتدحه وأذكر سيره وفتوحاته وأعتذر عن انتحال الشعر وأستعطفه بهدية الكتاب إليه ومطلعها :

هلْ غَيرُ بَابِكَ لِلغرِيبِ مُؤمّل
أوْ عَنْ جَنَابِك للأمَاني مَعْدِلُ

وتحدث عما كان عليه من هجر الشعر وأثر تركه عليه من تبلد فكره عن التعبير عن مفاخر الممدوح وأمجاده وعن الحقائق التي تصور ذلك، وأنه كلما حاول النظم لم يستطع وضاع منه، وأن بنات فكره كليلة عن وصف منجزاته وأعماله وهي بين يديه يرجو قبولها، يقول :

مَوْلاى غَاضَتْ فِكْرتى وتَبَلَّدَتْ
منِّى الطِّبَاعُ فكُلُّ شَىْءٍ مُشْكِلُ
تَسْمُو إلى دَرِكِ الحقَائق همَّتى
فَأصُدُّ عَنْ إدْرَاكِهِنَّ وأعْزِلُ
وَأجِدُّ لَيلِى فِى امْتِراءِ قَرِيحتى
وتَعُودُ غَوْراً بَيْنَما تَسْتَرْسِلُ
فأَبِيتُ يَعْتَلِجُ الكَلَامُ بِخَاطِرِى
والنَّظمُ يَشْرُدُ والقَوافِى تُجفِلُ (١)

---

(١) التعريف ص ٢٣٩ .

مِنْ بَعـد حَـوْلٍ أنتَقيـه ولمْ يكنْ
فِي الشّعْـرِ حَوْلِي مـا يُعَـابُ ويُهْـمَلُ
فـأَصُـونُه عَـنْ أَهْلِه مُـتـوَارِيـاً
ألاَّ يَضـمَّهُـمُ وشِعْـرِي مَخْـفِـلُ
وَهِيَ البِضَـاعَـةُ فِي القَبولِ نَفَاقـهاَ
سِيَّانِ فِيـهـا الفَحْلُ والمُتَطفّـلُ
وبَنَاتُ فِكْرِي إنْ أتَتْكَ كَليلَـةً
مَرْهَاء[1] تَخْطُرُ فِي القُصُورِ وتَخطِلُ
فلَهَا الفَخَارُ إذَا منَحْتَ قَبُولَهاَ
وأنَـا عـلَى ذَاكَ البَـلِيـغُ المقْـولُ[2]

وبين له أنه تفرغ للعلم، والسلطان ممن يقدر العلم، ويعرف قيمته، وقد رفعه الله منزلة فوق كل المنازل، تجعله يحق الحق، ويقيم العدل، ولايحيد عنه، ولا يسمع أراجيف المرجفين، فقال في إهداء كتابه « العبر » إليه :

والله مَـا أَسْـرفتُ فِـيمَـا قُلْتُـهُ
شَيْئًا ولا الإسْرافُ مِمَّا يَجْمُـلُ
وَلأَنْتَ أرْسَخُ في المَعَـارِف رُتْبَـةً
مِنْ أنْ يُمَـوَّهَ عِنْدَهُ مُـتَطَفِّـلُ

---

(١) مرهاء : امرأة مرهاء : غير مكتحلة ، وعين مرهاء : خالية من الكحل ، ويريد الشاعر أن قصيدته هذه تنقصها الزينة والاحتفال ٠

(٢) التعريف ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ٠

فَمِلاَكُ كُلٍّ فَضِيلَةٍ وحَقِيقَةٍ
بِيَدَيْك تَعْرِفُ وضْعَهَا إنْ بَدَّلُوا
والحقُّ عِنْدكَ فيِ الأُمُور مُقَدَّمٌ
أبدًا فَمَاذَا يَدَّعِيهِ المُبْطِلُ
واللهُ أعْطَاكَ الَّتي لا فَوْقَهاَ
فاحْكُمْ بِماَ تَرْضَى فَأَنْتَ الأعْدَلُ(1)

كما كتب قصيدة من قبل يهنئه بشفائه من مرض ألم به ومطلعها :

ضَحِكَتْ وُجُوهُ الدَّهْرِ بَعْدَ عُبُوس
و تَجَلَّلَتْنَا رَحْمَةٌ مِنْ بُوسِ (2)

وقال عن هذه القصيدة :

إنها عذراء وإنها جاءت بعد المشيب، واعتذر عن تقصيره فى عنايته بالشعر ونظمه :

وَإليْكَهَا مِنِّى علَى خَجَلٍ بها
عَذْرَاءَ قد حَليتْ بكُلِّ نَفِيسِ
عُذْراً فقد طُمِس الشَّبَابُ وَنُورُهُ
وَأضَاءَ صُبْحُ الشَّيبِ عِنْدَ طُمُوس

ثم ذكر أن عنايته بالكتابة عادت إليه بناء على عناية السلطان به بعد تطوافه بالبلاد

---

(1) التعريف ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(2) التعريف ص ٣٤١ .

وما لحقه من عناء وشيبة وأن الزمان قد أخني عليه لكثرة مدارسته للعلم ونشره وكثرة ما حل به من التعب وضعف الصحة والنشاط لأنه بذل كل النشاط فى العلم والتحصيل والتدريس :

لَوْلاَ عِنَايتُك الَّتِي أوْلَيتَنِي
مَاَ كنتُ أُغْنَى بَعْدَهَا بِطُرُوسِ
واللهِ مَا أبْقَتْ مُمَارَسَةُ النَّوَى
منِّى سِوَى مَرْسى أحَمَّ دَرِيسِ[1]
أنحَى الزَّمَانُ علىَّ فِى الأَدَبِ الذَّى
دَارسْتُهُ بِمَجَامِعٍ وَدُرُوسِ
فَسَطَا عَلَىَ وَفْرِى وَرَوَّعَ مَأمَنِى
واجْتَثَّ مِنْ دَوْحِ النَّشَاطِ غُرُوسِى[2]

ولما ترك تونس مفارقا لها إلى مصر ونال فيها ما نال من شرف المنزلة كان قد تعرض لبعض السعايات والوشايات فى ظلال حياته فى عهد الظاهر برقوق المملوكى حاكم مصر آنذاك ، وحدثت فتنة بتوقيع العلماء على فتوى ضد برقوق واشترك ابن خلدون فى التوقيع على هذه الفتوى ، يقول ابن خلدون : " وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش وأكرهنا على كتابتها " وأدت إلى عزل ابن خلدون من وظيفته فكتب إلى الجوبانى بأبيات يعتذر فيها عما حدث من مشاركته فى الفتوى المذكورة ، يقول ابن خلدون : " فتغافل عنها وأعرض عنى مدة ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه " ومطلع هذه الأبيات :

(١) المرسى : الحبل ,والأحم : الأسود ، والدريس : الخلق .
(٢) التعريف ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

سَيِّدى والظُّنونُ فِيكَ جَمِيلَة
وأيَادِيكَ بالأمَانِى كَفِيلَةَ [1]

ولعله فى هذه المرحلة التى يقول إنه هجر فيها الشعر كان مشغولاً بالعلم فلم يكن متفرغاً للشعر وإلا فالقصيدة التى أنشدها فى السلطان أبى العباس وإهداء الكتاب إليه بلغت نحو مائة بيت ، والقصيدة التى أنشدها للجوبانى بلغت خمسة وستين بيتاً، وهذه القصائد التى ذكرتها فى مراحل شعره تبلغ فوق ثمانين وأربعمائة بيت ، وابن خلدون يذكر أنها ليست كل ما قاله بل إن هذه القصائد تمثل ما ذكره فقط دون نسيان فالقصيدة الأولى ذكر منها خمسة أبيات وقال إنها طويلة نحو مائتين بيتاً ذهبت عن حفظى ، ويذكر فى حديثه عن شعره فى كنف السلطان أبى العباس أن ما أنشده ليس كل ما قاله فى هذا العهد من شعر فيقول : " وكان مما أنشدته إياه " - ولا يذكر القصيدة الأولى كاملة - ويقول فى أثنائها : " ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم والإطناب فى مدحه ، ويذكر بعض الأبيات ثم يقول فى أثنائها - أيضاً : ومنها فى ذكر إجازته البحر ، واستيلائه على ملكه ، ويذكر بعض الأبيات .

وقبل أن يذكر القصيدة الثانية فى عهد السلطان أبى سالم يقول : " ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه " ، ثم يذكر أبياتاً ويقول : ومنها فى ذكر خلوصى إليه ، وما ارتكبته فيه ، ثم يقول بعد نهايتها : وأنشدته فى سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرنى الآن شىء منه ، وهذا دليل واضح على أنه ليس كل شعره .

وحينما أنشد السلطان ابن الأحمر قصيدته فى المولد النبوى أشار إلى أنها ليست كل القصيدة فقال : ومنها فى وصف الإيوان الذى بناه لجلوسه بين قصوره وذكر أبياتاً ثم قال : ومنها فى التعريض بمنصرفى من العدوة - وذكر أبياتاً .

وفى قصيدته فى حفل ختان ابنيه يقول : « ولم يحضرنى منها إلا ما أذكره » ،

---

(١) التعريف ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وبعد المطلع وعدة أبيات يقول : " ومنها فى تقدم ولده للإعذار من غير نكول ، ويذكر ثلاثة أبيات ، ثم يقول : " ومنها فى الثناء على ولديه " ويذكر بيتين .

وفى قصيدته إلى السلطان أبى العباس أحمد يقول : " وصليت به عيد الفطر على البطحاء ، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من الموصل أهنئه بالعيد وأحرضه :

هذِى الدِّيَارُ فحَيِّهِنَّ صَبَاحَا

وقِفِ المَطَايَا بينَهُنَّ طِلاَحاً

وذكر خمسة أبيات ثم قال : «وهى طويلة ولم يبق فى حفظى منها إلا هذا » .

وقال مثل ذلك - أيضاً - عند إهدائه كتاب العبر إليه ، ولعله لم يكن يدون شعره أو يكتبه ، أو لعله ضاع منه بعد كتابته ولم يتناقله الرواة ، بدليل أن صاحب كتاب نثير الجمان قد ذكر مائة وسبعة أبيات من قصيدته الأولى التى قال عنها الشاعر : إنها ذهبت عن حفظه وكانت تبلغ المائتين ، ولعل الشاعر كان يعتمد على حفظه - كما يقول - والذاكرة لا تسعف الإنسان أحياناً كثيرة إذ يعتريها النسيان .

أغراض شعره

بعد دراستى لشعر ابن خلدون ، ومعرفة المناسبات التى قاله فيها تبين أنه لم يخرج عن الأغراض التى قيل فيها الشعر فى الشرق وأهمها المدح لمن قدم إليه القصائد ولكن القصيدة الواحدة لم تكن خالصة فى غرض المدح فقط بل كانت تشتمل على أغراض أخرى كثيرة تنبع من المناسبة التى قيلت فيها ، مثل الاستعطاف الذى كان يلجأ إليه نتيجة لوقوعه ضحية لبعض الوشايات التى تعود عليه بالضرر كالسجن أو العزل من الوظيفة أو التضييق عليه فى حياته ، كما تتضمن القصيدة أغراضاً أخرى مثل حديثه عن فراق الأهل وتوديعهم ، والحنين إليهم ، ومثل وصف الرحلة والمشاق التى تحدث فيها عبر الصحراء ومع القافلة ، وتحمل الأعباء الخاصة بالسير من مكان إلى آخر والمجهود المبذول فيها للوصول إلى الممدوح ، وما يجرى فيها من عناء ليلاً ونهاراً ، كما أنه أحياناً كان يعبر عما يعتريه من بؤس وشقاء حال التضييق عليه ، وما يساوره من قلق نفسى وآلام من جراء الوشاية به ، وحين تبتسم له الحياة يتجه إلى المدح ، وإذا مدح فإنه يتجه إلى وسائل المدح عند الشعراء العرب من ذكر صفات الممدوح ووصف انتصاراته الحربية وأدوات الحرب والقتال وغير ذلك مما يرتبط بوصف المعارك الحربية ، وشجاعة الممدوح وانتصاره على أعدائه ، وبذلك نخلص إلى أن نقول : إن الأغراض متداخلة فى القصائد فتتعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة مما يجعلنى أوجز الأغراض فيما يلى :

١ - المدح ٠

٢ - وصف المعارك والانتصارات ٠

٣ - وصف الأبنية ٠

٤ - المدائح النبوية ٠

٥ - التهنئة ٠

٦ - الشكوى والاستعطاف ٠

٧ - النسيب والتشبيب والحنين إلى الأهل والوطن ٠

(١) المدح

إن بيئة الشاعر لم تخرج عن كونها بيئة عربية تتبع ما تستلزمه هذه البيئة من غرض المدح ، ويدور حديثه فى المدح حول ذكر صفات الحاكم التى تنبع غالباً من الصفات الإسلامية كالوصف بالتقوى والعدل والكرم ، ووصفه بأنه يدافع عن حياض الدولة الإسلامية ، ويحارب أعداءها ولذلك يصف الممدوح ، ويصف جيوشه بالشجاعة والبسالة ، وتحقيق النصر على الأعداء ، وإلحاق الهزائم بهم .

فيمدح السلطان أبا عنان بجليل الصفات التى يحوزها ويبين أثرها فى الناس يقول :

مَنَاقِبُ تحكى الشُّهْبَ ضَوْءاً وَرِفْعَةً

فَيَسْرِى بِهَا فِى مَهْمَه الخَطْبِ رَاكِبُ

وهو فى رأيه ذو فكر ومعرفة بحقائق الأمور :

فَفِكْرٌ إذَا مَا أَظْلَمَ الخطبُ نيِّرٌ

وفَهْمٌ إذَا مَا أشْكَلَ العِلمُ ثَاقِبُ

ويشير إلى إجلال الملوك له لأنه فوقهم جميعاً :

تَزَاحَمَ تِيجَانُ الملوكِ بِبَابِه

كَمَا ازْدَحَمَتْ بِالدَّارِعِينَ المَوَاكِبُ

وتَفْخَرُ إنْ فَازَتْ بِلَثْمِ يَمِينِه

وأىُّ فَخَارٍ لو يُوَفَّاهُ طَالِبُ

وذلك لأنه ملك يحوز أسمى الصفات وينفرد بها :

لَكَ الله مِنْ مَلْكٍ أَغَرَّ مُهَذَّبٍ
تَقِيلُ المَرَاقِى عِنْدَهُ والمنَاقِبُ

ثُمَّ هُو الذّى لمَّ شمْل الدِّين وجَمَعَ النَّاس عليه :

جَبَرْتَ عِمَادَ الدِّين بَعْدَ انصداعه
عَلَى حِينٍ لمْ يَجْبُرْلهُ الصَّدْعَ شَاعِبُ

وهو ملك متمسك بالدين وأخلاقه مفضل له على الدنيا ومتعها :

وَمِلتَ عَنِ الدُّنْياَ إلى الدِّين رَاغِباً
عَلَى رَغْبَةٍ مِنهَا فَنِعْمَ المرَاغِبُ

ويصفه بأنه وطد دعائم ملكه بعزيمته وعزيمة من قادهم من حماته والمدافعين عنه :

وَمَهَّدْتَ رُكْنَ المُلْكِ مِنكَ بِعزْمَة
تَذبُّ بِهَا عَنه الحُمَاةُ الضَّوَارِبُ

وهو قد انتصر على كل المناوئين له والخارجين عليه من غير العرب ومن العرب أيضاً :

ودوَّخْتَ أرضَ الغَرب حتَّى تسابَقَتْ
لأمرك طوعاً عُجْمُهُ والأعارِبُ

وقد أخضع الجميع لسلطانه وأدَّب من خرج عليه :

وَلَمَّا قَضَى بالشَّرقِ كُلُّ مُكَذِّبٍ
عَصِيٍّ تُنَاجِيهِ الأمَانِى الكَوَاذِبُ

بدأتَهُمُ بالعَفْوِ لوأنَّ سَعْيَهُمْ
حَمِيدٌ لَمَا سَاءَتْ لديهِم عَواقِبُ

ولَكِنْ أَبَوْا إلاَّ جِمَاحاً وما دَرَوْا
بأنكَ جُنْدُ اللهِ واللهُ غَالِبُ

وَلجُّوا عَلَى ظَنٍّ بأنَّ حُصُونَهُمْ
مُمَنَّعَةٌ لوْ أنَّ غَيْرَكَ طَالِبُ

فَسِمْتَهُمُ بالرُّعْبِ قبْلَ نِزَالِهِمْ
فَفُلَّتْ جُمُوعٌ مِنْهُمُ وَمَضارِبُ

وذكر فى قصيدته أنه قد أطال المدح فيه وقد جذبه إلى مدحه جاذب من الحب والتقدير والاعتراف بمكارمه ، وأنه صنع قصيدته التى أعمل فيها الجودة والإتقان فجاءت حسناء على رغم الواشين والأعداء ... يقول :

أمَوْلاَىَ طَابَ القَوْلُ لى فَأطَلْتُهُ
وما طَيِّبَ الأقوالَ إلا الأطَايِبُ

وَمَا كَانَ لِى نِعْمَ القَرِيضُ بِطَاعَةٍ
ولكنْ دَعَانِى نَحْوَ مَدْحِكَ جَاذِبُ

فَـجـئْتُ بهـا حَـسْنَاءَ تَلْتـمسُ الرِّضَـا

وإنْ رَغِم الوَاشُـونَ فِـيْـهَـا وَشَـاغِبُ [1]

ويتـهلل الشـاعر ابن خلـدون فينتـقل من مـدح الرسول (صلى الله عليـه وسلم) والجماعات التى تذهب لزيارته ، وتقطع الفيافى وتتحمل المشاق فيها ينتقل من ذلك الى أن السلطان أبا سالم ورث الخلافـة فى آله من بنى يعقوب ، خلفاً عن سلف ، وكابراً عن كابر ، ثم مدح بنى يعقوب آل الممدوح بأنهم معروفون بالشجاعة والنزال والطعان فى الحرب ، وأنهم ينقضون على الفرسان والخيل التى تحملهم وهى تصول وتجول ، وقد اغبرت نواصيها وتراكم عليها الغبار لكرها وفرها ، وهم كرام يهبون الخيل الكريمة ، ويحمون ا لجيران ، وأعراضهم ، وهم قوم يهاب بأسهم ، ويخطب ودهم لأنهم ذوو عز ومنعة وشيم كريمة . . . يقول :

أو غَـــرَّدَ الـرَّكْبُ الخَلِـىُّ بِطَيْـــبَــة

حَـنُّـوا لِمغْـنَـاهَــا حَـنِينَ الـنُّـيـبِ

وَرِثُوا أعـتِـسَـافَ البِـيـدِ عَـنْ آبائِهِمْ

إرْثَ الخِـلاَفَـةِ فِي بَنِى يـعْـقُـوب

الطـاعِنُون الخـيـلَ وهْـى عَـــوَابسٌ

يغـشى مــشـارُ النَّقْعِ كـُلَّ سَـبِـيبِ

والواهِـبُــون المقْـربَـات صـوافِـنًا

مِنْ كُـلِّ خَـــوار العِـنَان لَـعُـوبِ

---

(١) انظر نثير الجمان للأمير ابن الأحمر .

والمانِعــون الجـارَ حــتَّى عــرضُـهُ

فى منتــدى الأعـداءِ غَـيـرُ معـيبِ

تُخْــشَى بَوادِرُهُمْ ويُـرْجَى حِلمُـهُـمْ

وَالعـزُّ شِـيـمَـةُ مـرتَجًى ومَـهـيبِ [1]

ثم يذكر أنه يؤمن حدود مملكته ويسعى إلى الخارجين عليه بشجاعته وأنه لا يرهب الخطوب ويشق عباب البحر فى أى اتجاه بعزيمة الرياح التى تهب ولا يردها شيىء ومعه ما يمنعه من الرماح والقوةالتى تجعله لا يخشى العوادى أو الحوادث حتى يقضى على الانحراف ويمهد سبل الاستقامة والهداية فى الأمة :

سـائِلْ بِه طَامِى العُبَـابِ وَقدْ سَرَى

تُزْجِـيـهِ رِيحُ الـعَـزمْ ذَات هُبُـوبِ

تَهْــدِيه شــهبُ أسِـنَّةٍ وَعَــزائـمٌ

يَصْــدَعْـنَ ليلَ الحَـادثِ المرهُوبِ

حَـتَّى انجَلَتْ ظُـلَمُ الضَّلاَلِ بسـعْـيـه

وَسَطَا الهُـدَى بفَـرِيقِـهـا المغْلُوبِ

ويلاحظ أنه يمدحه بالقضاء على الضلال ، ونشر الهدى ، كما أنه يمدحه بعد ذلك بأن أهله من ذوى التقوى ، وأنهم أقاموا حكمهم على أساسها ، وأنهم خصوه بتولى الخلافة لأنه يتصف بصفات تؤهله لحفظ الدين ، بما حفظ للدولة وأهلها من الحقوق ، وجعلها تظهر بمظهر الاستقامة والشرف أمام الدول حتى أصبح واضحاً للعيان ، ثم هو صاحب الأمجاد التى ورثها عن آبائه وأجداده أولى الشرف والمجد ، وصفاته الجديدة وسماته التى استحدثها ، وظهرت أمام الجميع تشهد بأصالتها

---

(١) التعريف ص ٧٣ .

ونبالتها ، وقد بز بها غيره ، فاستحق الخلافة دون منازع ، يقول :

يَا ابْنَ الألـى شـادُوا الخلافـة بالتُّـقَى
واسْتَـأثَـرُوك بتَـاجِـهـا المَـغْـصُـوبِ
جَـمَـعُوا لِحِـفْظِ الدِّيـن أىَّ مَنَاقِـبٍ
كـرُمـوا بهـا فِى مَـشْـهَـدٍ ومَـغيبِ
للـه مَـــجْــدُكَ طَارفـاً أوْ تَالـــداً
فلقــدْ شــهــدْنَا مِنْهُ كُلَّ عَـــجِــيبِ [1]

ثم وصف الممدوح بأنه يجمع بين الرهبة والرغبة فهو يرهب أعداءه لما له من قوة ردع ، وقضاء على نوازع الشر فيهم كما يحبه طالبو الحاجات لأنهم واثقون فى الحصول على رغباتهم ومنحه إياهم وعدم بخله عليهم ، فحقق المعالى بحماية الدولة وراحة أهلها وكفايتهم ، ثم يدعو له بأن يدوم سروره وتمتعه بالخلافة فى دولة تمتاز بالشرف وحسن الأحوال والاستقامة على الجادة ، وحياته تحقق لها كسب المفاخر والتقدم فى غدوه ورواحه ، وسعده القوى للأمة ومضاء لها إلى غايتها :

كم رَهْبَـــةٍ أوْ رَغْـبَـــةٍ بِكَ والـعُـــلاَ
تُقْــتَـادُ بـالتَـرغِـيـبِ والتَـرهِيــبِ
لازِلتَ مَـــسْـــروراً بـأشْـــرف دَوْلَة
يبْـدُو الهُـدَى مِنْ أُفْـقِـهَــا المرقُـوبِ
تُحْـيِ المعَــالِى غــادِياً أو رَائحـــاً
وَحَـديدُ سَـعْـدِكَ ضَامِـنُ المطلُوبِ [2]

(١) التعريف ص ٧٣ .

(٢) التعريف ص ٧٤ .

وفى قصيدته التى خاطب بها أبا سالم عند وصول هدية ملك السودان إليه يمدحه بأن معالم الرشد عنده واضحة ، فهو يفعل ما فيه الصلاح والخير بعقله الرشيد وتصرفه السديد ، وأثنى عليه بأنه خليفة يسير على الهدى والتقى ، ويقيم بناء الدولة للعز والمعالى وأنه سليل الشرفاء الموصوفين بكريم الصفات والأمجاد ، ولهم مواهب فى الغنى والثراء الاجتماعى والأخلاقى والإنسانى :

مَـالِى تُلامُ علـى الهَـوَى خُلُقِى
وهِىَ الـتى تَأبَـى سِـوَى الحَـمْـدِ
لأبَيْـتُ إلاَّ الرُّشْـد مُـذْ وضَـحَتْ
بالمُسْـتَـعِينِ مَـعَـالِمُ الرُشْـدِ
نِعْـمَ الخليـفـةُ فِـى هُدًى وتُـقى
وبِناء عِـزٍّ شَـامِـخِ الطَّـوْدِ
نَجْـل السَّـراة الغُـر شـأنُـهُمُ
كَـسْبُ الـعُـلاَ بِمَـوَاهِبِ الوُجْـدِ[1]

ثم يصف الممدوح الذى تعب فى الوصول إليه بأنه فى مكان عال كالجبل الشاهق، ويصفه بالشجاعة التى تجعله يفل المضارب من السيوف والرماح ، ويعلو على كل الملوك ذوى البطش والسطوة ، وأنه بذل جهداً حثيثاً حتى وصل إليه وذلك من واجباته لكى يقضى حق الأمجاد التى يتميز بها الممدوح ، وأن هذا الممدوح له أياد بيضاء على الشاعر ، إذ نال لديه الحظوة فكأنه فى جنة الخلد ينال من ثمارها ويشرب من كوثرها ، وهذا تعبير عن الخيرات التى نالها والمناصب التى تولاها ، ومن كثرة فرحه وسروره يتمنى لو يطير خبر سعادته فيبلغ أهله وأحبابه ليعرفوا ما

---

(١) التعريف ص ٤٧ ، ٥٧ .

وصل إليه فى عهد هذا السلطان ورحابه من مجد وعز يفخرون به جميعاً . . . يقول:

للـه مِنِّى إذْ تأوَّبَنِى
ذِكْرَاهُ وَهْوَ بِشاهِقٍ فَرْدِ

شَهْمٌ يَفُلُّ بَوَاتِراً قُضُباً
وَجُمُوعَ أَقْيَالٍ أولِى أيْدِ

أوْرَيتُ زَنْدَ العَزْمِ فِى طَلَبِى
وَقَضَيْتُ حقَّ المَجْد مِنْ قَصْدِى

وَوَرَدْتُ عَنْ ظَمَأٍ مَنَاهِلَهُ
فَرَوِيتُ مَنْ عِزٍّ ومِنْ رِفْدِ

هِىَ جَنَّةُ المأوَى لِمَنْ كَلِفَتْ
آمالُهُ بِمطالبِ المَجْدِ

لوْ لمْ أَعُلَّ بِوِرْدِ كَوثَرِهَا
مَا قُلْتُ هذِى جَنَّةُ الخُلْدِ

مَنْ مُبلغٌ قَوْمِى وَدُونَهُمُ
قُذُفُ النَّوَى وتَنُوفَةُ البُعْدِ

أنِّى أنِفْتُ على رَجَائِهِمُ
وَمَلَكْتُ عِزَّ جَمِيعِهِم وَحْدِى[1]

---

(١) التعريف ص ٧٦ .

ويعبر الشاعر عن إكرام الممدوح للوافدين عليه من الأحباش واعترافهم بكرمه السابق وإحسانه بهديته السابقة لملك السودان ، وأن رؤيتهم له تثبت علو مكانته على الترك والهند وأن منزلته تسمو على خلفاء بنى العباس كالمنصور ، والمهدى ، ثم يدعو له بأن يجزيه الله خيراً عما قدم من معروف ، وعند الله خير الجزاء ، وأوفاه ، ويدعو له بطول العمر مع السعادة والعزة :

جـــاءتْكَ فِـى وَفْــدِ الأحَــابِش لاَ
يرجُــونَ غـيَــركَ مُكْرِمَ الــوَفْــدِ
يُثْنُونَ بالحُــسْنَى التَّى سَـبَــقَتْ
مِنْ غَـيــر إنْــكارٍ وَلاَ جَــحْــدِ
وَيَـرَوْنَ لحَظـكَ مِـنْ وِفَـــادَتِهِـمْ
فَـــخْـــراً علَـى الأتْرَاكِ والـهِنْـدِ
يا مــسْـتَــعِـيناً جَلَّ فِى شَـرَفٍ
عَن رُتبَــةِ المَنْصــورِ والمهْــدِى
جَــازَاكَ ربّكَ عَــنْ خلِيَــقَــتِـه
خَـيــرَ الجَـزَاءِ فنِعْمَ مَــا يُسْــدِى
وبَقــيْتَ لِلــدُّنْيــاَ وَسَــاكِنِــهَــا
فِــى عــزَّةٍ أبَـداً وفِـى سَـعْــدِ[1]

(١) التعريف ص ٧٦ ٠

ويمدح السلطان أبا العباس أحمد سلطان تونس ويصفه بأنه أمل القادم من الغربة ومحقق الأماني ، وأنه نزل حيث الوجوه السمحة التي تتحلى بالبشر والتهلل ، وبين الملوك عزيزي الجانب الذين يحمون من يحل في جوارهم . . . يقول :

هَلْ غَيرُ بَابِكَ لِلغَرِيبِ مُؤَمَّلُ
أو عَنْ جَنَابِكَ للأَمَانِي مَعْدِلُ
حَيْثُ الوُجُوهُ الغُرُّ قَنَّعَهَا الحَيَا
والبِشْرُ فِي صَفَحَاتِهَا يَتَهَلَّلُ
حَيثُ الملوكُ الصِّيدُ والنَّفَرُ الأُلَى
عَزَّ الجِوَارُ لَدَيْهِم والمنْزِلُ[1]

ويصفهم بالاعتدال على طريقة التوحيد الذي جاء به القرآن الكريم ودعا إليه ، وهم بذلك يسيرون في عقيدتهم على الأصول ولا يخرجون عليها ، ثم إن دولته قامت على التقوى وأسست على عزها تأسيسا يمتد إلى الأصول ، فهو من أصل ينتمي إلى مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب الذي كان يلقب بالمهدي وهو محمد بن تومرت فهم من شيعته وأتباعه كما ينتمي هذا السلطان إلى الحفصيين وأبو حفص عمر بن عبد الله الصنهاجي هو جد لهم أو أب ، وهو من هو في صفاته وإقامته لدولة الحفصيين ، كما ينتمي هذا السلطان في أصل النسب إلى الفاروق عمر بن الخطاب ، وهو نسب أصيل يتتابع فيه الشرف والمجد تتابع الرماح التي يقومها الثقاف ويعدلها ، فأصبحت في غاية الاعتدال والصلاحية ، وكذلك هذا النسب الشريف نسب السلطان الممدوح ورث الفضائل كابراً عن كابر وشرف هذه الأسرة واضح بارز بين الناس ، معلوم المفاخر وجلائل الأعمال ، وهذه الأسرة لها فضل على الناس الذاهب منهم ، والباقي وأعلاهم فضلاً وشرفاً هو الممدوح ، كما أن هؤلاء الملوك

---

(١) التعريف ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

أسسوا دولتهم عزيزة شامخة ، وكان شأنها ولا يزال يتلألأ كالنجوم فى وسط الظلمات ، وقد أعلى البناء وزاده طولاً وقوة وزاد عزم الأمة مضاءً ونهضة ، هذا السلطان الممدوح بما فاق غيره من بنى أسرته وأهله من الملوك الميامين :

مِنْ شيعَةِ المَهْدِيِّ بَلْ مِنْ شيعَةِ
التَّوْحيدِ جاءَ بهِ الكِتَابُ يُفَصِّلُ

بَلْ شيعةِ الرَّحْمنِ أَلْقَى حُبَّهُمْ
فِي خلقه فَسَمَوْا بِذَاكَ وفُضِّلُوا

شادُوا على التَّقْوىَ مَبَانِى عِزِّهِمْ
لِلَّهِ مَاشَادُوا بِذَاكَ وأثلُوا

قَومٌ أَبُو حَفْصٍ أَبٌ لَهُمُ وَمَا
أدْرَاكَ! والفاروقُ جَدٌّ أوَّلُ

نَسَبٌ كما اطَّرَدَتْ أنابيبُ القَنَا
وأتى عَلَى تَقْوِيمِهِنَّ مُعَدِّلُ

سَامٍ عَلَى هَامِ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ
لِلْفَخْرِ تَاجٌ بِالبُدُورِ مُكَلَّلُ

فَضَلَ الأَنَامَ حَدِيثُهُمْ وَقَدِيمُهُمْ
ولأَنْتَ إِنْ فَضَلُوا أعزُّ وأفْضَلُ

وبَنَوْا على قُلَلِ النُّجُومِ وَوَطَّدُوا
وبِنَاؤُك العَالِى أَشَدُّ وأطْوَلُ

(٢) وصف الجيوش وآلات القتال والمعارك والنصر على الأعداء

كان ابن خلدون يعيش فى فترة تعددت فيها الدويلات ، ورجال الحكم والسلطان متنقلاً بين ربوع ا لمغرب من أدناه ووسطه وأقصاه ، كما أنه تنقل فى الأندلس ، وكانت الظروف تدفعه إلى البقاء فى كنف هذا السلطان أو ذاك ، وكان يرى ما يحدث من المناوشات والمعارك بين بعضهم وبعض وينتصر هذا وينهزم ذاك والبقاء للأقوى مما دفعه إلى أن يصف إعداد السلطان لجيشه ، ومهاجمته للمتربصين به ، وقضاءه على الفتن والإحكام على قبضة الحكم وتأمين حدود مملكته ٠

وكثيراً ما وصف جيوش االممدوحين ، وما معهم من عتاد وسلاح فوصف الفرسان والسيوف والرماح والخيول ووصف جولاتهم فى الحرب وانتصاراتهم التى بهرته وعبر عنها فى أثناء مدائحه ، وهذا اللون ليس جديداً بقدر ما كان الشاعر المغربى يقلد شعراء المشرق فى مثل هذا الوصف الذى كان يتكرر مراراً فى شرق الدولة الإسلامية ، فابن خلدون فى قصيدته التى قدمها إلى السلطان أبى عنان الذى سجنه يمدحه ويصف جيشه اللجب المدجج بالرماح والسيوف البتارة التى تروح وتغدو فى أيديهم ، ويصف صيالهم وإثارة الغبار تحت سنابك الخيل وعليها فرسان كالأسود فيقول :

مِنَ القَـوْمِ مَـا غَـيْـرُ القَنا فِى طَرِيقـهِمْ
أنيسٌ ولا غــيـرُ المهَــنَّد صَاحِـــبُ
إذَا أظْلَمَتْ جُنْحَ النَّـهارِ جُـمُـوعُـهُمْ
أضــاءَت وُجُـوهٌ مِنْـهُـمْ وَمَـناقِـــبُ

وإنْ ضَلَّ فـى ليْلِ الـكِفـاحِ دَلـيـلُـهُمْ

هَدَتْهُمْ من العـزْمِ الصَّمِـيـم كَواكِـبُ

بأيديهمُ سُــمْـرُ الرِّمَـاحِ كـمـا عـَلى

عَواتقـهـمْ بِيـضُ السُّيـوفِ القواضِـبُ

فــذَاكَ أصمٌّ بلَّغَ الـطَّعْـنَ لـلعــدَا

وَهَذا سَـمـيـعٌ إنْ تـنَاجَـى الكَتـائــبُ

غَـمَـائِـمُ للعَـافِين مِنْ كُلِّ صَـيِّــبٍ

وفى عَـرَصَـات المارِقـين مَـصَـائــبُ

فـفى الحَـربِ آسـادٌ وفى السِّلْمِ سَـادَةٌ

ويَوْمَ النَّدىَ والمـكْـرُمات سَـحَـائِبُ (١)

فالشاعر يوازن بين حاليهم فى الحرب والسلم ، فهم أقوياء فى الحرب ينالون من أعدائهم ، ولا يهابون النزال ، والطعان لما لديهم من شجاعة وعتاد حربى ، على حين أنهم فى السلم يتميزون بالأريحية والصفات الحسنة يعطفون ويمدون يد العون ، والكرم لمن يحتاجون إليه لأن الممدوح لا يقبل أن يخرج أحد على الأمن أو يمرق من تحت سلطان الحكم .

ويذكر الشاعر أن عادة الممدوح مع الخارجين عليه أن يطلب منهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يلوذوا بالأمن والأمان فإذا لم ينصاعوا لذلك أرسل إليهم جيشه العظيم يسحقهم ، ويروعهم ، ويجعل نساءهم تقيم المآتم عليهم ، مع ما يتميز به الممدوح من حلم ، ولين جانب فى معاملتهم ، وأنه مع قوته وقوة جيشه يعفو ويصفح بعد أن يلتزموا بالاستقرار ، وعدم الثورة أو الخروج مرة أخرى . . . يقول :

---

(١) نثير الجمان .

نَدَبْتَهُمُ لِلَّهِ ثُمَّ بَعَثْتَهُمْ
تُقَامُ على الأعداء مِنْهُمْ نَوَادِبُ
وَسِرْتَ فَلَوْلاَ أنَّ أمْرَكَ وَازِعٍ
لسَارَتْ جِبَالٌ عِنْدَهَا وأهَاضِبُ
وَرِيعُوا فلَو كالطَّوْدِ حِلْمُكَ قد رَبَا
لزُعْزِعَ مِنْ ذَاكَ الأشَمِّ جَوَانِبُ
بِجَيْشٍ يَغَصُّ الأُفْقُ مِنْهُ بِمَوْكِبٍ
وَيَعْجزُ عَنْ حَصْرِ الكَتِيبَةِ حَاسِبُ
أثَرْتَ بِهِمْ فَوْقَ الأعَادِى سَحَائِبَا
مِنَ النَّقْعِ جَدْوَاها السِّهام الهَوَايِبُ
فلوْلاَ اعْتِصَامٌ كَانَ مِنْهُمْ بِطَاعَة
لأُغْرِقَ فِى طُوفَانِهِنَّ المَراكِبُ
وَمُلّكْتَهَا شَرْقاً وغَرْباً كَأنَّمَا
لأمْرِكَ مِنْ جَارِى المَقَادِيرِ صَاحِبُ
فَعَفْواً أمِيرَ المُؤْمِنين فليْتَ لِى
أمَانٍ بِسُخْطٍ مِنْكَ والصَّبْرُ عَازِبُ

وفى رحاب السلطان أبى العباس أحمد ومدحه له يصف حماه المنيع ، وجيوشه ، ومن فيها من الفرسان ، وما تحمل من الرماح وما تركب من الخيل وطول مراسهم بالحرب . . . يقول :

حَيْثُ الرِّمَاحُ يكادُ يُورِقُ عُودُهَا
مما تُعَلُّ مِنَ الدِّمَاءِ وتُنْهَلُ
حيْثُ الجِيادُ أَملَّهُنَّ بَنُو الوَغَى
مما أطالوا فى المُغَارِ وأَوْغلوا
حَيْثُ الملُوكُ الصِّيدُ والنَّفرُ الأُلَى
عزُّ الجِوارُ لَديْهمُ والمنْزلُ

ثم يصف نسب الحفصيين مشبهاً له بأنه نسب قويم وأن تقويمه يشبه تقويم الرماح ، ويقول :

نَسَبٌ كما اطَّرَدَتْ أنابيبُ القَنَا
وأَتَى علَى تَقويمِهِنَّ مُعَدَّلُ[1]

ويصف العرب بأنهم مع تحضرهم مدربون على الحرب والنزال لا يبحثون عن غيره ، وأنهم كانوا مصدر قلق وإخافة لبعض الملوك ، ولكن الممدوح أخضعهم لسلطانه وأمن حدود مملكته . . . يقول :

رفَعواُ القبابَ على العِماد وعندها
الجُرْدُ السَّلاَهِبُ[2] والرِّمَاحُ العُسَّلُ
فِي كُلِّ ظَامِي التُّرْبِ مُتَّقِدِ الحَصَى
تَهْوى لِلجَّتهِ الظِّماءُ فَتَنْهَلُ

(١) التعريف ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) جمع سلهب وهو الطويل العظيم من الخيل ، ويقال رمح عاسل : لدن مضطرب والجمع عُسَّل .

جنٌ شَــرَابُهُمُ الــسَّــرَابُ ورزقُــهُـــمْ

رُمْــحٌ يَرُوحُ بِــهِ الــكَمِــيُّ ومُنْــصَــــلُ

حَيٌّ حُــلُولٌ بــالعَـــرَاءِ وَدُونَهُـــمْ

قُــذُفُ النَّوَى إنْ يَــظْعَنُوا أو يُقْــبِــلُــوا

كَـــانُوا يَرُوعُـــونَ المُلُوكَ بما بَــدَوْا

وَغَــدَتْ تُرفِّــهُ بالنَّعِــيم وتُــخضَــــلُ

فَــبَــدَوْتَ لاَ تَلْوِى عَــى دَعَــةٍ وَ لاَ

تأوِى إلى ظُلَــلِ القُــصُــورِ تُهــدَّلُ[1]

ثم يذكر أن الممدوح لم يقعد عن النزال ، والقتال ، ولم تغره الظلال والقصور ، وحياة النعيم ، ثم هو شجاع ، محارب على الخيل الضامرة ، فارس مغوار :

طَوْراً يُصَــافِــحكَ الهَــجِــيــرُ وتَــارَةً

فِــيــهِ بِخَــفْــاقِ البُنُودِ تُــظَلَّــــلُ

وإذَا تُعــاطِي ضُــمَّـــراً يَوْمَ الوَغَـــى

كَأسَ النَّجِيعِ فــبَالصَّهِيلِ تُــعَلَّــلُ

مُــخْشَوْشِنــاً فِي العِــزِّ مُعْــتَمِــلاً لَــهُ

فِي مِــثْلِ هَذَا يَحْسُنُ المسْــتَعْــمَــلُ

نَفْــرِي حَــشَــا البَــيْدَاءِ لا يَسْــرِى بِهَــا

رَكْبٌ وَ لاَ يَهْــوِى إلَيْهَـــا جَــحْــفَلُ[2]

---

(١) التعريف ص ٢٣٧ .

(٢) التعريف ص ٢٣٨ .

ثم يصف قيادته للجيوش التى تحمل الأسلحة المتنوعة ، وتضم الأبطال ، وتهزم الأعداء والمناوئين والخارجين على سلطة الدولة ممن يميل إلى العصيان والقلاقل :

وتَجُــرُّ أذْيَالَ الكَـتـائـبِ فَـوْقَـهَــــا
تَخْتــالُ فِى السُّــمْرِ الطِّــوَالِ وتَرْفُـلُ
تَرْمِـيــهِمُ مِنْهــاَ بِكُلِّ مُـدَجَّـــجٍ
شَـاكِى السِّلاحِ إذَا اسْتَـعَـارَ الأعْـزَلُ
وَبِكُلِّ أَسْـــمَـــرَ غُــصْنُــهُ مُـتَـــأَوِّدٌ
وَبِـكـل أبْيَضَ شَطُّــهُ مُـتَـهَـــدِّلُ
حَـتَّى تَـفَّـرقَ ذَلكَ الجَـمْعُ الأُلَـــى
عَـصَـفَتْ بِـهِمْ رِيـحُ الجِلاَدِ فَزلْزِلواُ
وَنَزَعْـتَ مِنْ أهْلِ الجَـــرِيدِ غَــوَايَــةً
كَــانَتْ بِهِـم أَبَـداً تَجِـدُّ وتَهْـــزِلُ
خَـرَّبْتَ مِـنْ بُنْيـانِهـاَ مَـا شَيَّــــدُوا
وَقَطَعْتَ مِـنْ أسْبَــابِهَـا مـا أَصَّـلُــوا
وَنَظَمْـتَ مِنْ أمْــصَـــارِهِ وثُغُـــورِهِ
لِلمُلْك عِــقْـداً بالفُـتُـوحِ يُفَـصَّـــلُ
فَــسَـدَدْتَ مُـطَّلَعَ النِّـفَــاقِ وأَنْتَ لاَ
تَنْبُــو ظُبَــاكَ وَلاَ العَــزِيمَـةُ تَنْكُــلُ

بِشَكِيمَةٍ مَرْهُوبَةٍ وَسِيَاسَةٍ
تَجْرِى كما يَجْرِى فُرَاتٌ سَلْسَلُ
فَضَوَى الأَنَامَ بعِزٍّ أرْوَعَ مَالك
سَهْلِ الخَلِيقَةِ مَا جِدٌ مَتفضِّلُ[1]

ثم يوازن الشاعر ابن خلدون بين مملكة ممدوحه ومملكة غيره وأنه استطاع أن يثبت أركان ملكه الذى ورثه عن أجداده من الملوك على امتداده واتساعه :

قَايِسْ قَدِيماً مِنْكُمُ بِقَدِيمِهِمْ
فالأمْرُ فيه واضِحُ لاَ يُجْهَلُ
دَانُوا لِقَومكُمُ بأقْوَمِ طَاعَة
هِىَ عُرْوَةُ الدِّينِ التى لا تُفْصَلُ
سَائِلْ تِلِمْسَاناً بِهَا وزَنَاتَة
وَمَرِينَ قَبْلَهُمُ كما قَدْ يُنْقَلُ
واسْأَلْ بأَنْدلُسٍ مَدائِنَ مُلْكِهَا
تُخْبِرْكَ حِينَ اسْتَيأَسُوا واسْتَوهَلُوا
واسْأَلْ بِذَا مَرَّاكُشًا وقُصُورَهَا
وَلَقَدْ تُجِيبُ رُسُومُهَا مَنْ يَسْأَلُ[2]

---

(١) التعريف ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ رفع «ماجد متفضل» علي الفاعلية للفعل «ضوى» أوهما نعتان لمالك مقطوعان للقافية ٠

(٢) التعريف ص ٢٣٦ ٠

(٣) وصف الرحلات الصحراوية والانتقال بالقوافل وما يجرى فيها

كان ابن خلدون يصف رحلته إلى الممدوح ، فيعرض لوصف ناقته وسيرها فى الصحراء مع القوافل ، وما يتحمل فيها من المتاعب ، كما وصف بعض الرحلات التى قطعها مفارقاً أهله وأصحابه ، ووصف الرحلات الصحراوية معروف عند شعراء المشارقة ، وأذكر أمثلة من شعره لوصف بعض تلك الرحلات ، فحين مفارقته لأهله ونزوله عند السلطان أبى عنان يقول واصفاً الصحراء التى تفرق بينه وبين أحبته :

وَبَيْدَاءَ قَفْرٍ غَيَّرتْهاَ يَدُ البلَى
وَأَزْرَتْ بِمَغْنَاهَا الصَّبَا والجَنَائِبُ
بهاَ لِعَزِيف الجِنِّ أىُّ تَراجُعٍ
وَبَيْنَ الرِّيَاحِ الهُوجِ فيِهاَ تَلاَعُبُ
يَفُلُّ بِهاَ الخِرِّيتُ فِى كُلِّ مَوْقِفٍ
فَيُغْرِقُهُ بَحْرٌ مِنَ الثَّلْجِ ذَائِبُ

ويقول واصفاً الرحلة والركب :

وَسِرْنَا وَتَرْجِيعُ الحُدَاةِ يحُثُّنَا
كمَا رَجَّعَ الإِنْجِيلَ فى الصُّبْحِ رَاهِبُ

نَمـيلُ عـلَى الأكـوارِ بِشْـراً كـأَنَّناَ
نشَـاوَى مُـدَامٍ أَمْحلَتْـهـاَ الحَـقـائِـبُ
أَقـولُ لِصَــحْبِـى والظَّعَـائِـنُ تَرْتَمي
وَقَـدْ أخذَتْ مِنهَـا السُّرَى وَالنَّجَـائبُ
وَقَـدْ ظَمِـئتْ مِـنهـاَ المَطِـيُّ وَأَظْلَمَتْ
دُجَى خـفِـيَتْ فِـيهَـا عَلَيْنَا المَـذاهِبُ
رِدُوا البِـئْـرَ يَـرْوِيهَـا الـغَـمَـامُ وَهَذِه
دُمُـوعِيَ لا يَـظمَـا بِهَـا بَعْـدُ شَـارِبُ

ويصف رحلته إلى أبى عنان ، وما تحمل فيها من المتاعب ، فيقول عن ناقته :

رَقَـمْتُ بِهَا فِى صَـفْحـةِ البيـدِ أَسْطُراً
كمَا زَانَ رَقْـماً فِـى الصَّحِيـفةِ كَاتِبُ
وجُبْتُ بِهَـا غَـوْرَ الفَـلاَةِ ونَجْـدَهَـــا
ولَيْسَ سِـوَى مِنْ ذَنْبِـهَا مـا الأهَاضِبُ
كَـأَنِّى لَـقِـيطٌ وَالبِـــلادُ تُجِـيـبُــنِي
خَـواطرُ مِـنْهَـا لِلمَـعَـانِى صَـوائِـبُ
إلى أنْ حَطَطتُ الرَّحْلُ فِى شُرْفَةِ العُلاَ
لدَى بَابِكَ الأعْلَـــىَ كـمَـا حَطَّ آيِـبُ

وعند مدحه السلطان أبا سالم يتحدث عن وصوله إليه على ناقته التى يصفها بعدة صفات تتصف بها النوق فى الصحراء قائلاً :

وَرَقِيمَةِ الأعطَافِ حَالِيَةٍ

مَوْشِيَّةٍ بِوَشَائِعِ البُرْدِ[1]

وَخَشِيَّةِ الأنْسابِ مَا أنِسَتْ

فِي مُوحِشِ البَيْدَاءِ بِالقَوْدِ

تَسْمُو بِجِيدٍ بَالِغٍ صعداً

شرفَ الصُّرُوحِ بِغَيْرِ مَا جَهْدِ

طَالَتْ رُءُوسُ الشَّامِخَاتِ بِهِ

وَلَرُبَّمَا قَصُرَتْ عَنِ الوَهْدِ

قَطَعَتْ إلَيْكَ تَنَائِفاً وَصَلَتْ

إسْآدَهَا بِالنَّصِّ وَالوَخْدِ[2]

تَخْدِي عَلَى اسْتِصْعَابِهَا ذُلُلاً

وَتَبِيتُ طَوْعَ القِنِّ وَالقِدِّ[3]

جَاءَتْكَ فِي وَفْدِ الأحَابِشِ لاَ

يَرْجُونَ غَيْرَكَ مُكْرِمَ الوَفْدِ

وافَوْكَ أنْضَاءً تُقَلِّبُهُمْ

أيْدِي السُّرَى بِالغَوْرِ وَالنَّجْدِ

---

(١) الوشائع : جمع وشيعة وهي شيء كالحصير يتخذ من الثمام ، وعلم الثوب ، والبُرد - بالضم - ثوب مخطط • القاموس ١/ ٢٨٦ ، ٣/ ٩٧ .

(٢) النص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها ، والوخد : ضرب من سير الإبل ، وهو سعة الخطو في المشى •

(٣) تخدى : تسرع ، والقن : العبد ، والقد : بالكسر سير يقد من جلد غير مدبوغ

كَـالطَّـيف يَسْتَـقْـرِى مَـضَـاجِـعَـهُ
أوْ كَـالـحُـسَـامِ يُسَلُّ مِنْ غِــمْـدِ [1]

ويصف السائر فى الصحراء ، وقد حمل رمحه ، وكأنه يضىء له :

ولقَــدْ أقُـولُ لِـخَـائِضٍ بَـحْـرَ الفَـلاَ
وَاللَّـيْلُ مُــزْبَـدٌ الجـوَانـبِ أليَـلُ [2]
مَــاضٍ عَلَى غَـوْلِ الدُّجَى لا يتَّــقِى
تيــهـاً وَذَابِلُــهُ ذُبَالٌ مُــشْـعَــلُ
مُـتَــقلِّـبٌ فَــوْقَ الرِّحَـالِ كــأنَّــهُ
طَيْـفٌ بأطْـرافِ المِهَـــادِ مُـــوكَّـلُ
أرِحِ الرُّكَـابَ فَـقَــدْ ظَفِـرْتَ بِوَاهب
يُعْطِـى عَطَاءَ المنعِـمينَ فَــيُـجْـزِلُ [3]

ويقول أيضاً :

قَــسَـماً بِمـوْشِيِّ البِطَاحِ وَقَـدْ غَـدَتْ
تَخْــتَــالُ زَهْواً فِى ثِيَــاب عَــرُوسِ
والمَاثِـلاَتُ مِنَ الحَنَايَـا جُــثَّــمـاً
يُخْــبِـرْنَ عَنْ طَسْـمٍ وَفَـلِّ جَــدِيس

---

(1) التعريف ص ٧٥ ، ٧٦ .
(2) بحر مزبد : مائج يقذف بالزبد ، وليل أليل : شديد طويل .
(3) التعريف ص ٢٣٥ .

خُوصٌ [1] مُـضَمَّـرَةُ البُطُونِ كَـأَنَّهَـا
أَنْضَـاءُ رَكْبٍ فـى الفَـلاَةِ حَـبِـيـس
وَخَـزَ البِلَى مِنْهَـا الغَـوَارِبَ والذُّرَا
فَلَفَـتْنَ خُـزْراً بالـعُـيُـونِ الـشُّـوسِ [2]
لَبَـقَـاكَ حِـرْزٌ للأَنَامِ وعِـصْـمَـةٌ
وَحَـيَـاةُ أَرْوَاحٍ لَـنَا ونُـفُـوسِ [3]

(١) لونها أشهب .
(٢) الغوارب : جمع غارب وهو مقدم سنام البعير ، والذرا : جمع ذروة وهى أعلى سنام البعير يعنى أن البلى قد عمها ، والشوس : النظر بمؤخر العين غيظاً وغضباً
(٣) التعريف ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) وصف الأبنية

وصف ابن خلدون قصر ابن الأحمر الذى بناه لجلوسه بين قصوره ، وسماه (الإيوان) فذكر أنه قصر مشيد قوى البناء لا يعتريه ضعف مدى الدهر ، وأن العيون تحار حين تراه مفتتنة بحسن بنائه ، وما فيه من نقوش وزخرفة وجمال ، وأنه فى رأى الشاعر أعظم من إيوان كسرى فى فخامته ، وعظمته وبهائه ، وأنه جمع أفنان البهاء بما ضم من مناظر حسنة ورياض غناء تفوق رياض دمشق الفيحاء ، وأنه قصر يحبه الرائى ، ويميل إليه وينجذب نحوه بقلبه ، وهو مجال لخواطر الشعراء والأدباء إعجاباً وافتتاناً بسحره وبهائه ، وحسن متنزهاته . . . يقول :

يا مَصْنَعاً شيدَتْ منهُ السُّعُودُ حمىً
لاَ يَطْرُقُ الدَّهْرُ مَبْنَاهُ بِتَوْهِينِ

صَرْحٌ يحارُ لَدَيْهِ الطَّرْفُ مُفتَتَناً
فيما يرُوقُكَ مِنْ شَكْلٍ وتَلوِينِ

بُعْداً لإيوان كِسْرى إنَّ مَشْوَرَكَ[1]
السَّامِى لأعْظَم مِنْ تلكَ الأوَاوِينِ

وَدَعْ دِمَشْقَ وَمَغْنَاهَا فَقَصْرُكَ ذَا
أشْهَى إلى القَلْبِ مِنْ أبْوَابِ جَيْرُون[2]

---

(١) المشور فى الاصطلاح المغربى والأندلسى : المكان الذى يجلس فيه السلطان فمن دونه من الحكام للحكم .

(٢) جيرون : موضع من متنزهات دمشق أكثر الشعراء من ذكراه ، معجم البلدان ٣/ ١٩١ ، والشطر الثانى مضمن من شعر لشاعر آخر ، وانظر التعريف ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٥) المدائح النبوية

وردت فى كتاب التعريف ثلاث قصائد قالها الشاعر ابن خلدون فى ذكرى المولد النبوى ؛ الأولى قالها وهو عند السلطان أبى سالم سنة ٧٦٠ هـ ، والثانية والثالثة قالهما فى الأندلس عند السلطان ابن الأحمر سنة ٧٦٥ هـ ، ففى القصيدة الأولى - بعد ذكره لمقدمة غزلية أشير إليها فى الحديث عن النسيب - يخاطب الراكبين الذين يمرون بالمدينة المنورة طالباً منهم أن يعرجوا على مثوى الرسول الكريم ، ويصف ما يركبون من الجمال وسيرها فى الصحراء ليلاً ونهاراً ، ويرسم صورة الركب والريح تحرك ثياب الراكبين ، ويذكر حديثهم عن الأحباب ، والأشواق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وساكنى تلك البقاع الطاهرة ، وهم يسيرون فى أماكن موحشة تعد مواطن للموت والهلاك ... يقول :

يَا سَائِقَ الأظْعَانِ يَعْتَسِفُ الفَلاَ
وَيُوَاصِلُ الإِسْآدَ بِالتَّأوِيبِ

مُتَهَافِتاً عَنْ رَحْلِ كُلِّ مُذَلَّلِ
نَشْوَانَ مِنْ لِينٍ وَمَسِّ لُغُوبِ [١]

تَتَجَاذَبُ النَّفَحَاتُ فَضْلَ رِدَائِهِ
فِى مُلْتَقَاهَا مِنْ صَبًا وَجَنُوبِ

إِنْ هَامَ مِنْ ظَمَأِ الصَّبَابَةِ صَحْبُهُ
نَهَلُوا بِمَوْرِدِ دَمْعِهِ المَسْكُوبِ

---

(١) المذلل من الدواب : السهل الانقياد - الأين : الإعياء - اللغوب : التعب .

أَوْ تَعْتَرِضْ مَسْرَاهُمُ سُدفُ الدُّجَى

صَدَعُوا الدُّجَى بِغَرامِهِ المشْبُوبِ

فِى كُلِّ شِعْبٍ مُنْيَةٌ مِنْ دُونِهَا

هَجْرُ الأَمَانِى أو لقَاءُ شَعُوبِ

وقد طلب الشاعر من الراكب المرور بالمدينة لرؤية المختار صلى الله عليه وسلم ، ولرؤية أمارات النبوة ظاهرة واضحة لا يخفيها شىء . . . يقول :

هَلاَّ عَطَفْتَ صُدُورَهُنَّ إلى التَّى

فِيهَا لُبَانَةُ أَعْيُنٍ وقُلُوبِ

فَتَؤُمَّ مِنْ أَكْنَافِ يَثْربَ مَأمَناً

يَكفِيكَ مَا تخْشَاهُ مِنْ تَثْرِيبِ

حَيْثُ النُّبُوَّةُ آيُهَا مَجْلُوَّةٌ

تَتلُو مِنَ الآثَارِ كُلَّ غَرِيبِ

سِرٌّ عَجِيبٌ لم يُحَجِّبْهُ الثَّرَى

مَا كَانَ سِرُّ الله بالمحْجُوبِ

وقد عرض ابن خلدون أجزاء من القصيدة بعد أن أسقط أجزاء أخرى تتعلق بذكره معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، والإطناب فى مدحه ، لكنه لم يذكرها ولعله نسى هذه الأجزاء المحذوفة ، وبقية القصيدة تشمل فقرات ينادى فيها الشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه ليبسرالله له أسباب زيارته صلى الله عليه وسلم ، وبين فيها أن مدح الرسول طيب لكنه قصر فيه ، ويكفى مدح القرآن له ، ولذلك لم يطل فى المدح :

إنِّى دَعَــوْتُكَ وَاثـقــاً بإجَــابَــتى

يَا خَيــرَ مَدْعُــوٍّ وَخَيْـرَ مُــجِيـبِ

قَـصَّرْتُ فى مَدْحِى فـإنْ يَكُ طَيِّبــاً

فـبِـمَــاَ لِذكْـرِكَ مِن أريجِ الطِّيـبِ

مـاذَا عَسَى يَـبْغِى المُطِيـلُ وَقَدْ حَـوَى

فى مَــدْحِكَ الـقُــرآن كُلَّ مَطيــبِ

ويتوسل الشاعر ، ويتمنى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم بأن تتاح له الفرصة المهيأة له فيحقق فوائد جمة وهى محو خطاياه ، وحط أوزاره وأحمال ذنوبه الثقيلة :

يَا هَـلْ تُبَـلِّغُنِى الَّـليَـــالِى زَوْرَةٌ

تُـدْنِـى إلـىَّ الـفَــوْزَ بـالَمرغُــوبِ

أَمْـحُـو خَـطِيـئـاتِى بِإخْــلاَصِى بِهَـا

وَأَحُـطُّ أَوزَارِى وإِصْــرَ ذُنُــوبِــى

ويحب الشاعر ويرجو أن يذهب إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم مع جماعة جردوا أنفسهم من أمانى الدنيا وحملوا على كل جمل وناقة قاطعين الصحارى ما بين إسراع المطى وإبطائها ، وهم يرددون ذكرى الحبيب فى شوق وطرب :

فِى فِـتْـيـةٍ هَجَـرُوا المُنَى وتَـعـوَّدُوا

إنْضَــاءَ كُلِّ نَجِـيـبَـةٍ وَنَجِـيـــبِ

يَطْوِى صَحَائِفَ لَيْلِهِمْ فَوْقَ الفَلاَ
مَا شِئْتَ مِنْ خَبَبٍ وَمِنْ تَقْرِيبِ[١]
إنْ رَنَّمَ الحَادِى بِذِكْرِكَ رَدَّدُوا
أَنْفَاسَ مُشْتَاقٍ إليْكَ طَرُوبِ
أَوْ غَرَّدَ الرَّكْبُ الخَلِىُّ بِطَيْبَةٍ
حَنُّوا لِمَغْنَاهَا حَنِينَ النِّيبِ[٢]

وهذا يبين صورة ما يحدث فى ركب المسافرين لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم من فرح وسرور وهيام ، وتخلية النفس لذكر الرسول ، والحنين إليه بعد تعب وعناء .

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن ممدوحه وصفاته فى أبيات كثيرة[٣]

والقصيدة الثانية كانت فى رحاب ابن الأحمر - كما نعلم - وقد بدأها بالنسيب ، والحنين إلى الأحبة ، وأعقب ذلك بأبيات فى التشوق إلى نجد ، وساكنيها مخاطباً لهم ، ومبيناً أنَّ ذكرهم إذا مر بخاطره انتشى وهام ، وأنه دائم الشوق والصبابة إلى تلك الأراضى الحجازية ، وخاطب المحبوب الذى يرد بخاطره دائماً ، فهو يسكن تلك البلاد البعيدة عنه لكنه قريب من نفسه يناجيه ، ويحادثه ويخاطبه بأنه على ذكر منه وأنه لا ينساه بحال ولا يسليه عنه شىء وأن الأيام لا تبعده عن خاطره قط ؛ لأنه الرسول المحبوب صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الخبب : نوع من العدو ، والتقريب : العدو دون الإسراع .
(٢) النيب : جمع ناب ، وهى الناقة المسنة .
(٣) التعريف ص ٧١ وما بعدها .

يَا أَهْلَ نَجْـدٍ ومَـا نَـجْـدٌ وَسَـاكِـنُهـاَ

حُسْناً سِـوَى جَنَّـةِ الفِـرْدَوسِ والعِين

أَعِنْدَكُـمْ أَنِّي مـا مـرَّ ذُكْـرُكُــمُ

إلاَّ أنـثَنَيْتُ كـأَنَّ الَّـراح تـثْنِينِـــي

أَصْـبُوإلى البَـرْقِ مِنْ أَنْحـاءِ أَرْضِكُمُ

شَـوقـاً ولولاكُمُ مَـا كَـانَ يُصْـبِينِـي

يَا نَازِحــاً والمُنَى تُدْنِيــهِ مِنْ خَـلَدى

حَـتَّى لأَحْـسَــبُه قُـرباً يُنَاجِيـنِــي

أَسْلَى هَوَاكَ فُـؤَادِى عَنْ سِـوَاكَ وَمَـا

سِـوَاكَ يَـوْمـاً بِحَـالٍ عَنْكَ يُسْلِيِنـي

تُرَى اللَّيَــالِى أَنْسَتْكَ ادِّكَــارِىَ يـَا

مَنْ لم تَكُـنْ ذِكْـرُهُ الأَيَّامُ تُـنْسِـينِـي[1]

والقصيدة الثالثة مطلعها :

أَبى الطَّـيْفُ أَنْ يَعْـتَــادَ إلاَّ تَوهُّـمــاً

فَـمَنْ لِى بَـأَنْ أَلقَى الخَـيَـالَ المُسَـلِّمَــا

وليس فيها أبيات فى الحضرة النبوية الشريفة لكن ما ذكر منها فى النسيب والغزل ولعل ذلك مما يشير إلى فقدان بعض شعره ، وقد تحدث عن مناسبْتها بقوله وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة (يقصد سنة خمس وستين وسبعمائة) ثم ذكر القصيدة التى تخلو من الإشارة إلى المولد النبوى الكريم[2] .

---

(١) التعريف ص ٨٦.

(٢) التعريف ص ٨٩، ٩٠ .

(٦) التهانـي

فيما وصل من شعر ابن خلدون قصائد اشتملت على التهنئة بحدث معين دينى أو اجتماعى ، والشاعر كان ينتهز الفرصة التى تواتيه ليصل إلى غرضه الذى يرمى إليه من الاستعطاف أحياناً ، والتقرب إلى الممدوح أحياناً أخرى ، وحينما كان الشاعر فى رحاب السلطان أبى سالم كان ممتعاً بكل شىء من التقرب إلى السلطان ، ونيل المناصب التى تولاها واستمر على ذلك حتى تعرض لسعاية الساعين به من أمثال ابن مـرزوق وغيـره فـأراد ابن خلـدون أن يعـود إلى بلـده افـريقـيـة (تونس) ، ولما لم يتمكن من ذلك توسط بالوزير مسعود بن رحو بن ماساى لدى صديقه الوزير عمر بن عبد الله وأنشده قصيدة يستعطفه فيها لكى ينال مأربه ، وكانت المناسبة حاضرة بعيد الفطر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فأنشده قصيدته بادئاً لها بالتهنئة للوزير ابن ماساى بقبول الصوم وبالعيد ، ودعا أن تتحقق له السعادة مع تتابع السنين ، ودعا بالسقيا والخصب والنماء لعصر الممدوح ، وأن يكون عصر خير وبركة وجود ، يقصده الناس لينالوا مآربهم ، ويحققوا أغراضهم ممن يعرف ومن لا يعرف ...

يقول :

هَنِيـئـاً بِصَـوْمٍ لاَ عَـداَهُ قَـبُـولُ
وَبُشْـرَى بِعِيـدٍ أَنْتَ فِيـهِ مُنِيـلُ

وَهُنِّئْـتَـهَـا مِنْ عِـزَّةٍ وَسَـعَـادَةَ
تتَـابعُ أَعْـوامٌ بِهَـاَ وَفُـصُـولُ

سَـقَى الله دَهْـراً أَنْتَ إِنْسَـانُ عَـيْنِه
وَلا مَسَّ رَبْعـاً فِى حِـمَاكَ مُـحُولُ

فَعَـصْـرُكَ مَـا بَـيْنَ اللَّيَـالِى مَـوَاسِمٌ
لَهَـا غُـرَرٌ وضَّـاحَـةٌ وحُـجُـولُ
وَجَـانِـبُكَ المأمُـولُ لِلـجُـودِ مَـشْـرَعَ
يَحُـومُ عَلَيْـه عَـالمٌ وَجَـهُـولُ [1]

ولما ذهب إلى الأندلس فى رحاب سلطان مملكة غرناطة ابن الأحمر عاد إليه أنسه، والحفاوة به ، ومدح ابن الأحمر بعدة قصائد كما أشرت فيما سبق .

وكان من عادة هذا السلطان وأمثاله أن يقيموا الحفلات فى المناسبات ، ويدعوا إليها الشعراء وتقام الولائم للحاضرين ، وفى مناسبة ختان ولدين للسلطان سنة خمس وستين وسبعمائة أنشده ابن خلدون قصيدته فى حفل الختان ، وقال فى مناسبتها : " وأنشدته سنة خمس وستين فى إعذار[2] ولده ، والصنيع الذى احتفل لهم فيه ، ودعا إليه الجفلى[3] من نواحى الأندلس ، ولم يحضرنى منها إلا ما أذكره، وقد بدأها بذكرى الأحبة والحنين إليهم . . . فقال :

صَـحَـا الشّـوقُ لَوْلاَ عَـبْـرةٌ ونَحِـيبُ
وذِكْـرَى تُجِـدُّ الوَجْـدَ حِينَ تَـثُـوبُ

ثم ذكر بعد ذلك وصفاً لتقدم الواحد من ولده لتجرى له عملية الختان دون خوف أو تردد ، وأنه مضى كالسيف الماضى فى الحرب فنال غرضه ، وأصاب ، وأن الولد

(١) التعريف ص ٧٧ ، ٧٨.

(٢) إعذار : أى ختان .

(٣) الجفلى : يقصد بالجفلى الدعوة العامة إلى الطعام على حد قول الشاعر :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لاترى الأدب فينا ينتقر

مثل أبيه فى صفاته ، وأخلاقه الكريمة التى تنبىء عن علو الشأن والسعى إلى المجد ، والمكارم ٠٠٠ يقول :

فَيَمَّمَ مِنهُ الحَفلَ لاَ مُتَقَاعِسٌ
لخَطبٍ ولا نِكسُ اللّقَاءِ هَيُوبُ [١]

وَرَاحَ كَمَا رَاح الحُسَامُ مِنَ الوَغَى
تَرُوقُ حُلاَهُ والفِرِنْدُ خَضِيبُ [٢]

شَواهِدُ أهدَتْهنَّ مِنكَ شَمائِلٌ
وَخُلُقٌ بِصَفْوِ المَجْدِ مِنكَ مَشُوبُ

ثم أثنى على الولدين وأنهما مثل النجمين المشرقين يتسمان بعلامات النجابة ، والشجاعة والكرم والمعالى مثل أبيهما ٠٠٠ يقول :

هُمَا النيِّرانِ الطَّالعـان عَلى الهُدَى
بآيَات فَتْح شَأنُهُنَّ عَجِيبُ

شِهَابَانِ فِى الهَيْجَا غَمَامَان فى النَّدى
تَسُحُّ المَعَالِى مِنهُمَا وتَصُوبُ

يَدَانِ لِبَسْطِ المكْرُمَات نَمَا هُمَا
إلى المَجْدِ فَيَّاضُ اليَدَيْنِ وَهُوبُ [٣]

وقد هنأ - أيضاً - سلطان تونس أبا العباس أحمد الحفصى - وقد أصابه مرض وعقبه إبلال - بقصيدة ذكر فيها أن الفرح قد جاء ، وعمت الرحمة بعد الألم،

---

(١) النكس : الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

(٢) الفرند : السيف .

(٣) التعريف ص ٨٨، ٨٩.

والضيق ، وانتشرت بشائر السرور ، وزال الهم بعودة الصحة إلى السلطان ، وأن حياته هى حياة الناس جميعاً :

ضَحِكَتْ وُجُوهُ الدَّهْرِ بَعْدَ عُبُوسِ
وتَجلَّلَتْنَا رَحْمَةٌ مِنْ بُوسِ
وتوضَّحَتْ غُررُ البَشَائِرِ بَعْدَ مَا
انْبَهَمتْ فأطلَقَها حُداةُ العِيسِ
صَدَعُوا بِهَا لَيْلَ الهُمُومِ كَأنَّمَا
صَدَعُوا الظَّلاَمَ بجذوَةِ المقبُوسِ
فكَأنَّهُمْ بثُّوا حَيَاةً فِى الوَرَى
نُشِرَتْ لَها الآمَالُ مِنْ مَرمُوسِ

وقد أشار الشاعر إلى الفرحة التى عمت ، وتناقلتها ألسنة الناس ، فجاءوا من هنا وهناك ، وقد هدأت نفوسهم ، وقرت عيونهم بخبر شفاء السلطان ، وهم نشاوى من الفرح والسرور يتمايلون كما يتمايل من احتسى الراح ، والجموع متدفقة ما بين راكب وجالس بعد جالس :

قَرَّتْ عُيُونُ الخَلقِ مِنهَا بالَّتى
أضْفَتْ مِنَ النَّعْمَاءِ خَيرَ لَبوسِ
فَكَأنَّ قَومِى نادَمَتْهُمْ قَرْقَفٌ[1]
شَرِبُوا النَّعِيم بِهَا بِغَيرِ كُئُوسِ

---

(١) القرقف : الخمر .

يَتَمايلُونَ مِنَ ا لَمَسَّرة والرِّضَا
وَيُقَابلُون أهِلَّةً بِشُمُوسِ

مِنْ رَاكِبٍ وَافى يُحَيِّى رَاكِباً
وَجَليس أُنسٍ قادَهُ لِجَليسِ

ويقول الشاعر : جاء الرجل الصالح إمام جامع الزيتونة الداعية الهادى فدعا للسلطان بالشفاء ويدعو الشاعر للسلطان بأن يشفيه الله من الأدواء المستعصية :

ومُشَفَّعٍ لله يُؤْنَسُ عِنْدَهُ
أثَرُ الهُدَى فِى المعْهَدِ المَأنُوسِ

يَعتَدُّ مِنْهَا رَحْمَةً قُدسِيَّةً
فَيَبُوءُ للرَّحْمَنِ بالتَّقْدِيس

طَبٌّ بإخْلاَصِ الدُّعَاءِ وإنَّهُ
يَشفِى مِنَ الّداءِ العَيَاءِ وَبوسِى

ثم يذكر الشاعر أن حياة الممدوح هى حياة للناس ، وصيانة لنفوسهم ، وأن الرءوس تطأطأ له محبة وخضوعاً :

لَبقَاكَ حِرْزٌ لِلأَنَامِ وَعِصْمَةٌ
وَحَيَاةُ أرواحٍ لنا ونُفُوسِ

ولأنتَ كَافِلُ دِينِنَا بِحِمَايَة
لَوْلاَكَ ضُيِّعَ عَهدُهَا وتُنُوسِى

تَعْنُو القُلُوبُ إِلَيكَ قَبْلَ وُجُوهِنَا

سِيَّانِ مِنْ رَأْسٍ وَمِنْ مَرْءُوسِ

ثم يبين الشاعر منزلة السلطان ، وإخافته لأعدائه ولو كان بعيداً عنهم فى محل إقامته ، ومضيه للقاء المعادين يحقق السعادة والقوة لأمته :

فَإِذَا أَقَمْتَ فَإِنَّ رُعْبَكَ رَاحِلٌ

يُحْمِى عَلَى الأَعْدَاءِ كُلَّ وَطِيسِ

وإذَا رَحَلتَ فَلِلسَّعَادَةِ آيَةٌ

تَقْتَادُهَا فِى مَوْكِبٍ وَخَمِيسِ

وإذَا الأَدِلَّةُ فِى الكَمَالِ تَطَابَقَتْ

جَاءَتْ بِمَسْمُوعٍ لَهَا وَمَقِيس

فَانْعَم بِمُلْكِكَ دَوْلَةٌ عَادِيَّةٌ

تُشْقِى الأَعَادِىَ بِالعَذَابِ البِيسِ[1]

وهو بهذا يقتبس من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ، ويستخدم مصطلحات فقهية كالسماع والقياس والأدلة والتطابق مما يستمده من ثقافته الفقهية والأصولية .

---

(١) التعريف ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٧) الشكوى والاستعطاف

مرت حياة ابن خلدون كما ذكرت فى التأريخ لحياته بأطوار من النعمة ، والراحة، والمناصب أحياناً ، ثم من النقمة والوشاية به ، وتجريده من المناصب أحياناً أخرى ، فإذا وجد راحة فى مكان بقى فيه ، ثم إذا أصابه عسر أراد الرحيل منه ، وله قصائد رفعها أحياناً إلى السلاطين يستعطفهم ويشكو إليهم حاله الذى وصل إليه بعد الوشاية من البؤس ، والشقاء ، وأحياناً يرفع القصيدة إلى بعض ذوى الشأن من الوزراء والأمراء ليتوسطوا له لدى المسئول الذى غضب عليه سلطاناً أو وزيراً ، وهو فى شكواه ، واستعطافه غالباً مايلجأ إلى ذكر حيف الزمان عليه ، وعدم صفاء الأيام له ، ويتوسل إلى من يستعطفه بأنه غريب عن الأهل ، وعن الوطن وأنه يعانى من آلام الفراق للأحبة ، ويتذكر أيامه الخاليات وما كان فيها من نعيم مقيم ، ويبين أن الوشاة قد رموه بما ليس فيه من العيوب ، والذنوب ، ويطلب الصفح عنه ، أو العفو عما بدر منه ، ويعلن التوبة إن كان قد حدث منه خطأ ، وكان هذا الذى يقع فيه ناجماً عن منزلته عند الحكام ، وعلمه ، وفضله ، وتقدير الناس له ، مما جعل الحاسدين يكيدون له ، وهكذا شأن كل نابه فى أمته يكون محط الأنظار ، ومحل الحسد ، والحقد ، ولم تخل الحياة من ذلك فى عصر من العصور ، وكما قيل : (فالسيل حرب للمكان العالى) ، وسأتدرج بذكر بعض ما مر به ابن خلدون من أحوال كدرت عليه صفو حياته ، ودعته إلى الشكوى والاستعطاف والاعتذار ، فحينما كان ابن خلدون فى رحاب السلطان أبى عنان تعرض للوشاية ، وكيد الكائدين ، فبعد أن كان مقرباً لدى السلطان غضب عليه ، وأودعه السجن ، يقول ابن خلدون – تحت عنوان حدوث النكبة من السلطان أبى عنان – : " كان اتصالى بالسلطان أبى عنان آخر سنة ست ، وخمسين ، وقربنى ، وأدنانى ، واستعملنى فى كتابته حتى تكدر جوى عنده بعد أن كان لا يعبر عن صفائه ، ثم اعتل السلطان آخر سبع وخمسين ، وكانت قد حصلت بينى وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة أحكمها ما كان لسلفى فى دولتهم ، وغفلت عن التحفظ فى مثل ذلك من غيرة السلطان ، فما هو إلا أن شغل بوجعه حتى أنمى إليه بعض الغواة أن

صاحب بجاية معتمل فى الفرار ليسترد بلده ، وبها يومئذ وزيره الكبير عبد الله بن على فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه ، وكان فيما أنمى إليه أنى داخلته فى ذلك فقبض على وامتحننى وحبسنى ، وذلك فى ثامن عشر صفر سنة ثمان وخمسين ، ثم أطلق الأمير محمداً ، ومازلت أنا فى اعتقاله إلى أن هلك ، وخاطبته بين يدى مهلكه مستعطفاً بقصيدة , أولها :

عَلَى أىِّ حَالٍ لِلَّيَالِى أُعَاتِبُ

وأىَّ صُرُوفٍ للزَّمَانِ أُغَالِبُ

وذكر بعد ذلك أربعة أبيات - مع أنها فى رأيه تبلغ نحو مائتين بيتاً - ولما بحثت عن بقية القصيدة وجدت كثيراً من أبياتها ذكرها الأمير ابن الأحمر فى كتابه (نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان) مخطوطة فى دار الكتب تحت عنوان أدب خصوصية ١٨٦٣ - وقد ذكر منها ابن الأحمر سبعة ومائة بيت ، وسأعلق على بعض هذه الأبيات التى ذكرها مستعطفاً وشاكياً .

والقصيدة تشتمل على أغراض شتى من المدح والحنين إلى الوطن والأهل ، ووصف الرحلات الصحراوية وغير ذلك ، وأقتبس منها هنا مقطوعات تعبر عن الموضوع الذى أنا بصدده ، وقد جاء فى صدر القصيدة تعبيره عن شكوى الزمان الذى جار عليه ، وأنه غريب الأهل والوطن ، وأن الحوادث والأيام تحاربه ، وهو غريب عن أهله الذين يحن إليهم ، وقد حالت بينه وبينهم المصاعب والصحارى الواسعة ، والمسافات الطويلة ، وهو رهين السجن ، يقول فى مطلعها :

عَلَى أىِّ حَالٍ لِلَّيَالِى أُعَاتِبُ

وأىَّ صُرُوفٍ لِلزَّمَانِ أُغَالِبُ

كَفَى حَزَناً أنِّى عَلَى القُرْبِ نَازِحٌ

وأنِّى عَلَى دَعْوَى شُهُودِىَ غَائِبُ

وأنّى عَـلَى حُكْـمِ الحَــوَادث نَـازِلُ
تُسَــالِمُنى طَـوْراً وَطَوراً تُحَـارِبُ
أَحِنُّ إلى إلـفِى وَقَــدْ حَــالَ دُونَهُمْ
مَــهامِــهُ فَيح دُونَهُـنَّ سَبَـاسِــبُ

وبعد أن وصف الصحراء ، وأهوالها تحدث عن كل ما يربطه بأهله من الحنين ، والشوق ، والديار ، والرحلة ، وحسن الأيام التى قضاها فى وطنه - مما سأذكره فى حديثه عن ا لحنين والشوق - ، ثم تحدث الشاعر عن الهموم التى تحيط به ، وتساور نفسه وهو يلومها ، وتلومه ، سواء كان ذلك فى نومه أم فى يقظته ، وأن الفكر يستولى عليه لا سيما وهو غارق فى ظلمات الليل :

أَبِيتُ تُنَاجِينِى الهُـمُـومُ كَـأَنَّــنِى
صَدِيقٌ عَصَى فِى الحُبِّ وهْيِ تُعَاتِبُ
وَإِنْ نِمتُ غَـنَّتْنِى قِــيَــانُ أَذَاهِــمِ
لهَــا بَيْنَ أَقْــدَامِ الكُمَــاةِ مَـلاَعِــبُ
وَقَـدْ أَمتَطِى فِكْرِى لَدَى اللَّيْلِ مَـرْكَبـاً
مِنَ الكَرْبِ تَحـدُونِـى إِلَيـهِ الرَّكَـائِبُ

وبعد أن مدح السلطان أبا عنان ، وأثنى عليه ، وذكر أعماله وبطولاته ، وجيوشه، ودفاعه عن الدين والوطن ، وهزيمة أعدائه عاد يستعطف السلطان مبيناً أنه جاء بقصيدته هذه طيبة القول لانجذابه نحوه ، وطلب منه العفو والتجاوز عن وشاية الأعداء ولاسيما وهو يملك الحلم الواسع ، وأنه يتجاوز عن المعايب ، والمثالب التى صدرت منه ، أو لفقها له الوشاة من أعدائه . . . يقول :

أَمـوْلاىَ طَابَ الـقَـوْلُ لِى فَـأَطَـلْتُـهُ

ومـا طَـيِّبِ الأَقَــوال إلا الأطَايِـــبُ

وَمَـا كَـــانَ لِى نِعْمَ الـقَـرِيضُ بِطَـاعَـة

ولكنْ دَعَـانِى نَـحَـو مَـدْحِكَ جَـاذِبُ

فَـجِئْتُ بِهَـا حَسْنَاءَ أَلْتَـمِسُ الرِّضَـا

وَإِنْ رَغِمِ الوَاشُــون مِنْهــاَ وَشَـاغِبُ

فَـعَـفْـواً - أَمِيـرَالمؤمِنِـين - فَلَيْتَ لِى

أَمَـان بِسُـخْطِ مِـنْكَ والصَّـبرُ عَـازِبُ

وَقَـدْ وَضَـحَتْ لِلحِلم فى كُلِّ مَـهْـيَعٍ

وَعَــاص شَرُود عَنَـكَ طُرْقٌ لَواحِبُ

أَبَـي الـله إلاَّ أنْ يَـكُـون لَـكَ العُــلاَ

تُنِيلُ الوَرَى عَـفْـواً فَـتُـعْـفَى المَعَـايِبُ

وإِنْ أَثْبتَ الأعْـداءُ أَنِّى مُــذْنِـــبٌ

فَـصَفْـحُكَ يَا مَوْلاَىَ للذَّنْب سَـالِـبُ

وَهَبْـهُمْ رَمَــوْنى بالَّتى لَسْتَ أَهْلَهَـا

أليسَ انْـتِـســابِى وَاضِحٌ مُــتَنَـاسِـبُ

أَبَعْـد اغْـتِـرَابِى عَنْ بِلاَدِى تَحُثُّـــنى

إِلى بَـابِكَ الأَعْلَى بِبُطْئٍ شَــوَاذِبُ

ثم يخاطب السلطان مستعطفاً بأنه تحمل من المشاق والمتاعب ما تحمل حتى وصل إليه وأن رحابه هو رحاب العلا والسعود ، وجميع الناس ينهلون منه ، وقد جاء قاصداً له لا لغيره وأنه لا يميل إلا إليه - دفاعا عما نسب إليه من مجاملته لصاحب بجاية وتآمره معه على حساب السلطان أبى عنان - ثم أعلن توبته عما قد يكون وقع فيه مما زينه الوشاة . . . يقول :

إلىَ أنْ حَطَطْتُ الرَّحل فِى شُرْفَةِ العُلاَ
لَدَى بَابِكَ الأعْلىَ كَمَا حَطَّ آيبُ
وَأَصْدَرَنِى عَنْ وِرْدِ نُعْمَاكَ نَاهِلٌ
وَقَد أَثْقَلتْ ظَهرِى لَديْكَ المَوَاهِبُ
فَكَيْف أُوَلِّى شَطرَ غيرِكَ وجْهَةً
أُؤَمِّلُ مِنهُ نجْعَةً أو أُرَاقِبُ
وَمَا خَلصَتْ إلاَّ بِبَابِكَ هِجْرَتِى
ولم تَصْفُ لِى فِيمَنْ سِوَاكَ المَشَارِبُ
وَإِنِّى عَلَى عِلمٍ بأنِّى مُمَلَّكٌ
سِوَاىَ عَن الدُّنْيا ولا عَنْكَ ذَاهِبُ
وَلكنْ عَوَادٍ غَيَّرتْنى فإنْ تَكُنْ
زَمَاناً فإنِّى اليَومَ منهنَّ تَائبُ

وفى مجال الاستعطاف والشكوى رفع الشاعر قصيدة إلى الوزير مسعود بن رحو بن ماساى ليتوسط له لدى رديفه وصديقه الوزير عمر بن عبد الله ليأذن له بالسفر

إلى بلده تونس أو إلى افريقية كما كانوا يسمونها ، وقد منعه الوزير من السفر حتى لا يتصل بأبى حمو صاحب تلمسان ظناً منه أنه سيتآمر معه ضد نظام الحكم فى المغرب الأقصى . . . يقول :

"لم يزل ابن مرزوق آخذاً فى سعايته بى ، وبأمثالى من أهل الدولة غيرة ومنافسة - هذا فى عهد السلطان أبى سالم - إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك فصار إليه الناس ونبذوا السلطان وبيعته ، وكان فى ذلك هلاكه ، ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرنى على ما كنت عليه ووفر إقطاعى ، وزاد فى جرايتى ، وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه ، وأدل فى ذلك بسابقة مودة معه منذ أيام السلطان أبى عنان وصحابة استحكم عقدها بينى وبينه . . . . ثم حملنى الإدلال عليه أيام سلطانه ، وما ارتكبه فى حقى من القصور بى عما أسمو إليه أن هجرته ، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له ، فتنكر لى ، وأقطعنى جانباً من الإعراض فطلبت الرحلة إلى بلدى بافريقية وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان ، والمغرب الأوسط ، ومنعنى من ذلك أن يغتبط أبو حمو صاحب تلمسان بمكانى ، فأقيم عنده ولج فى المنع من ذلك وأبيت أنا إلا الرحلة واستجرت فى ذلك برديفه وصديقه الوزير مسعود بن رحو بن ماساى ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين فأنشدته [١] ، وذكر القصيدة ، وبعد أن ذكر مطلع القصيدة وأبياتاً بعده فى التهنئة بالصوم والعيد أخذ فى الاستعطاف وتلمس الوساطة من ابن ماساى ليسمح له الوزير عمر بن عبد الله بالرحلة إلى وطنه ، وأخذ يتوسل إلى ابن ماساى بأن الزمان قد بخل عليه بما يريد ، واستجار به لأن الدهر قد عدا عليه، وأنه لا يستطيع التغلب على غِيَر الدهر إلا بأن يقيل ابن ماساى عثرته . . . يقول :

عَسَـــاكَ وإنْ ضَنَّ الزَّمَـــانُ مُنَـــوِّلى
فَـرَسْمُ الأمَــانِى مِن سِواكَ مُـحِيلُ

(١) التعريف ص ٧٧ .

أجِرْنى فلَيْسَ الدَّهْرُ لى بِمُسَالِمٍ
إذَا لم يَكُنْ لى فِى ذُرَاكَ مَقِيلُ

وَأَوْلِنِيَ الحُسْنَى بما أنَا آمِلٌ
فَمِثْلُكَ يُولِى رَاجِياً ويُنِيلُ

ثم ذكر له السبب فى طلب الرحلة وأنه لا يطلبها لكراهته الإقامة معهم ، فإن الإقامة عندهم كريمة لا يرغب فى التحول عنها ، ولكنه متشوق إلى الأهل والأحبة بعد هذه الغربة الطويلة وأهله لا يعلمون عنه شيئاً :

وَالله مَا رُمْتُ التَّرحُّلَ عَنْ قِلىً
ولا سخْطَةً للعَيشِ فَهْو جَزِيلُ

ولا رَغْبَةً عَنْ هَذه الدَّارِ إنَّهَا
لظلٌّ علَى هَذا الأنَامِ ظَلِيلُ

ولكنْ نأى بالشّعب عنِّى حَبائبٌ
شَجَاهُنَّ خَطبٌ للفراقِ طَوِيلُ

يَهِيجُ بهنَّ الوَجْدَ أنِّى نَازِحٌ
وأنَّ فُؤادى حَيثُ هُنَّ حُلُولُ

عَزِيزٌ عَلَيهنَّ الَّذى قَدْ لَقِيتُهُ
وأنَّ اغْترابى فِى البِلاَدِ يَطُولُ

تَوارَتْ بِأنْبَائى البِقَاعُ كَأنَّنى
تُخُطِّفْتُ أو غَالَتْ رِكَابِى غُولُ

ثم انتقل من ذلك إلى مخاطبة بلاده وأهله ، وأنه مكان الحب والهوى ، وأنه يبكى من أجله ، ويشتاق إلى رؤية أماكنه ، من الحقول الخضراء ، والمساكن ، وأماكن المياه ، وأنه لم ينس هذا العهد ، ولم يتحول عنه ، وأنه لذلك يبكى بدموعه الحرى ، ويدعو على نفسه بألا يتمكن من لقائهم ، وألا يحمله حامل إليهم إذا كان كاذباً :

ذَكَرْتُكَ يَا مَغْنَى الأَحِبَّةِ والهَوَى
فَطَارَتْ بِقَلْبِى أَنَّةٌ وَعَوِيلُ
وَحَيَّيْتُ عَنْ شَوْقٍ رُبَاكَ كَأَنَّمَا
يُمَثَّلُ لِى نُؤْىٌ بِهَا وَطُلُولُ
أ أحْبَابَنَا والعَهْدُ بَينى وَبَينكُمْ
كَرِيمٌ وَمَا عَهْدُ الكَرِيم يَحُولُ
إذَا أنَا لَمْ تُرْضِ الحُمُولُ مَدَاً معى
فلا قَرّبَتْنِى لِلّقَاءِ حُمُولُ

وراح ينعى على المعالى التى سلبت منه ، وبعدت عنه وأرادت الرحيل ، واستعصت عليه ، كما يتباكى لبخل الزمان عليه بما يتمنى ، وهو بين اليأس والرجاء ، وهو يريد أن يقضى بقية العمر فى بلاده ، يلاقى فيها الراحة بعد العناء ، ويتخلص من الآلام والشدائد من حوله . . . يقول :

إلاَمَ مُقَامِى حَيثُ لَمْ تُرِدِ العُلاَ
مُرادِى وَلَم تُعْطِ القِيَادَ ذَلُولُ

أُجَاذِبُ فَضْلَ العُمْرِ يوماً ولَيْلَةً

وَسَاءَ صَبَاحٌ بَيْنَها وأَصِيلُ

ويَذهبُ بِى مَا بَيْنَ يأسٍ ومَطْمَعٍ

زَمَانٌ بِنَيْلِ المعْلواتِ بَخِيلُ

تُعَلِّلُنِى عَنْه أمَانٍ خَوادِعٌ

ويُؤنسُنِى لِيَّانُ مِنْهُ مَطُولُ

أَمَا لِلَّيالِى لا تُرَدُّ خُطُوبُها

ففى كبِدي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ

يُرَوِّعُنِى مِنْ صَرْفِها كُلُّ حَادثٍ

تَكَادُ له صُمُّ الجِبَالِ تَزُولُ

ثم ذكر الشاعر مداراته لأعدائه ، والواشين والحاسدين ، لا لجرم ارتكبه ، ولكن لما فى نفوسهم من حقد عليه ، وحسد له ، وقد فقد مناصبه التى هو أهل لها :

أُدَارِي على الرَّغْم العِدَاَ لاَ لرِيبَةٍ

يُصَانعُ واشٍ خَوفَها وعَذُولُ

وَأغدُو بأشْجَانِى عَليلاً كأنَّما

تَجُودُ بِنَفْسِي زَفْرةٌ وَغَليلُ

ثم عاد يتحدث عن غربته ، ومنعه من السفر إلى بلده ، وتمنى أن ينفرج الكرب ، ويؤذن له فى السفر ، وتوسل إلى ابن ماساى ليبلغ طلبه حتى يجاب إليه :

وَ إِنّى وإِنْ أَصْبَحتُ فِى دَارِ غُربَة
تُحِيلُ اللّيالِى سَلوتِى وَتُديلُ

وَصَدَّتنى الأيَّامُ عَنْ خَيرِ مَنْزِل
عَهِدْتُ بِه ألاَّ يُضَام نَزيلُ

لأعْلَمُ أنَّ الخَيرَ وَالشَّرَّ يَنتَهى
مَداهُ وأَنَّ الله سَوفَ يُديلُ

وَأنِّى عَزيزٌ بِابنِ مَاسَاىَ مُكْثِرٌ
وإِنْ هَانَ أَنصَارٌ وَبَانَ خَلِيلُ[1]

ولما جاء إلى مصر ، وتولى بعض المناصب فيها عاش فى ود وهناء ، إلى أن حدثت بعض الوشايات التى أدت إلى توجس الظاهر برقوق منه ، ومما جعله ينقم عليه ، وعلى بعض الفقهاء فتوى دفعهم إليها منطاش وأكرههم عليها ، وكان مضمون الفتوى : هل يجوز قتال الملك الظاهر برقوق أم لا نظراً لأنه يقاتل فى عسكره جماعة من نصارى الشوبك ، وتضمنت الفتوى أن الظاهر يستعين على قتال المسلمين بالنصارى ، ولم يكن الأمر كذلك إنما أرادوا التلبيس على العلماء المفتين ، فعند ذلك أفتى العلماء بجواز قتاله ، ومنهم ابن خلدون[2] فكتب ابن خلدون قصيدة إلى الجوبانى - وهو نائب سلطنة برقوق ومعناه صاحب الشورى فى الدولة[3]- يعتذر فيها الشاعر عن هذه الفتوى ليطالع بها السلطان الظاهر حتى يعفو عنه ، ولكن الجوبانى تغافل عنها ، وأعرض عنه مدة ، ثم عاد إلى رضاه وإحسانه ، ومطلعها :

---

(١) التعريف ص ٧٧ ، ٧٩ .

(٢) التعريف ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) التعريف ص ٣٢٧ .

سَـيِّـدى والظُّنُونُ فِـيكَ جَـمِـيلَةْ
وأَيَادِيكَ بالأمَـانِى كَـفِـيلَـةْ

فابن خلدون ظن أن الجوبانى سيناصره ، ويخذل عنه ، لأنه يرى ابن خلدون حقيقا بالدفاع عنه لبراءته مما ألصق به من التهم ، وهو يطلب منه الاستشفاع والإجارة مما هو فيه من الكوارث ، ولا غرو فهو خير صديق ، وقريب ينتسب إليه ، وينتمى إلى جماعته :

لا تَحُلْ عَـنْ جَـمِـيل رَأيك إنِّـى
مَـا لى اليَـومَ غَـيـرُ رَأيِكَ حِـيلَةْ
واصْطنِعنى كـمـا اصْطَنَعْتَ بِإسْـدَا
ءِ يدٍ مِـنْ شَـفَـاعَـةٍ أَوْ وَسِـيلَةْ
لا تُضِـعْنِى فلَسْتُ مِنكَ مُـضَـيـعًـا
ذمَّـةَ الحُـبِّ والأيَادِى الجَـمِـيلَةْ
وأَجِـرْنـى فـالخَطـبُ عَضَّ بِنابَـيْـهِ
وأجْـرَى إلى حِـمَـاىَ خُـيـولَـهْ
وَلَـوَ انِّى دَعَــا بِـنَـصْـرِىَ دَاعٍ
كُنْت لِى خَـيـرَ مَـعْـشَـرٍ وفَـصِـيلَةْ

ويطلب منه التوسط لدى السلطان وذويه من أولى الأمر فيقول :

أنـه أمْـرِى إلـى الـذِّى جَـعَـل
الله أُمـورَ الدُّنـيـا لَهْ مَكْـفُـولَةً

وَأَرَاهُ فِـى مُلْكِهِ الآيـةَ الـكُبْــــرَى

فَــــولاَّهُ ثُم كَـــانَ مُـــدِيلَـــهْ

وراح يمدح السلطان فى عـدة أبيـات ، ثـم طلب من الجـوبانى أن يعـرض أمـره باللطف واللين فهو مقرب إلي السلطان :

وَتَلطَّفْ فِـى وَصْفِ حَـالِـى وشكْوى

خَلَّتى يا صَــفـيَّـــهُ وخَليلَـــهْ

قُلْ لهُ والمقَـالُ يكْرُمُ مِنْ مِـثلِـكَ

فِى مَـحْـفَلِ العُـلاَ أَنْ يَقُـولَـــهْ

يا خَـونْد المُلُوك يا مَـعْـدل الـــدّ

هر إذا عَـدَّلَ الزَّمَانُ فُـصُـولَـهْ

ثم يطلب منه أن يجبر كسره ، فـهو المؤمل للشاعـر ، ليكون لـه عليـه الأيادى الطويلة ويناشده بحق الجيرة أن يحميه ، ويمنع جواره ، لأنه يعيش معهم غريباً ، وليس من هذه البلاد وأن يساعده فى رفع ما حل به من النكبات وفقده أهله وأولاده بالغرق بعيداً عن وطنه :

لا تُقَـصِّرْ فِى جَبْرِ كَسْرِى فَـمـا زلْـ

تُ أُرَجِّـيـكَ للأيَـادِى الطَّـوِيلَـــةْ

أنَا جَـــارٌ لكُمْ مَنَـعْـتُمُ حِـمَـــاهُ

وَنَهَـجْـتُمْ إلى المعَـالِـى سَـبِيلَـهْ

وَغَــرِيبٌ أَنَـسْـتُـمُـوهُ على الوَحْـ

شَــةِ والحُزْنِ بالرِّضَا والسُّهُـولَةْ

وَجَمَعْتُمْ مِنْ شَمْله فَقَضَى

اللهُ فِرَاقاً وما قَضَى مَأمُولَه

غالهُ الدَّهْرَ فِي البَنينَ وفي الأهْـ

ل وَمَا كَانَ ظَنُّهُ أنْ يَغُولَهْ

وَرَمَتْهُ النَّوَى فَقِيداً قد أجتَا

حَتْ عَلَيْه فُرُوعَهُ وأُصُولَهْ

ثم ذكر أنهم قد رفعوا قدره ، وأنالوه من العلا وأعطوه المودة ، والتقريب قبل أن تحل به الكوارث :

فَجَذَبْتُمْ بِضَبْعِه [1] وَأنَلْتُمْ

كُلَّ مَا شَاءت العُلاَ أنْ تُنِيلَهْ

وَرَفَعْتَمْ مِنْ قَدْرِه قَبْلَ أنْ

يَشْكُو إِليكُمْ عَيَاءَهُ وَخُمُولَهْ

وَفَرضْتُمْ لَهُ حَقِيقَة وُدٍّ

حاش لله أنْ تُرى مُسْتَحِيلَهْ

ثم يشير إلى ما روجه أعداؤه من الشائعات عن ذنب لم يرتكبه ، واتهام بأقوال لم يقلها ، وأنه لم يخن حقوقهم عليه ، ولم ينقض العهد ، ولم ينكر الفضل ، وأنه بريء مما نسب إليه ، ثم أقسم على صحة ذلك :

رَوَّجُوا في شَأنِي غَرائبَ زُور

نصَبُوهَا لأمرِهِمْ أُحْبُولَةْ

---

(١) الضبع : العضد .

وَرَمَـــــوْا بـالَّـذِى أرَادُوا مِـــنَ

البُـهتَـانِ ظَنًا بأَنَّهَـا مَـقْـبُولَــةْ

زَعَـمُـــوا أَنَّنِي أتيتُ مِنَ الأقْـــوَا

لِ مَـــا لا يُظَنُّ بِـى أنْ أَقُـــولَـهْ

كَـيفَ لِى أغْـمـطُ الحُـقُــوقَ وأَنَّى

شكْــرُ نعُـمـاكُـمُ عـلىً الجـزيلةْ

كَـــيفَ لـى أن أُنكرَ الأيادِى الَّـتى

تعَـرِفُـهـا الشَّـمْسُ والظِّلالُ الـظَّلِيلةْ

ثم أنكر الفتوى التى فعلها غيره ، ووقع هو فى شرها :

طَـــوقُــونا أمْـــرَ الكتــاب فَـكَانَتْ

لِقِـــداحِ الظُّنُون فـــينـا مُـجِــيلَةْ

لاَ وَرَبِّ الـكتـــــابِ أنْـزَلَهُ اللَّـهُ

عـلَى قَـلـبِ مَنْ وَعَى تَـنْـزِيلَــــهْ

مَـــا رضــيِنَا بِذَاكَ فِـــعــلاً ولا

جِـئْناهُ طَوْعَــاً ولا اقــتـفـينا دليِـلَـهْ

إنَّمـــا سَـــامَنَا الكتَـــابَ ظَـلُومٌ

لا يُـــــرَجَّى دِفَـــاعُـــه بالحِــيلَةْ

ثم طلب أن يمحو عنه ذنبا كتب عليه من المدفوعين بالتحريض ، وهو ليس من صنعه :

غَيرَ أنِّي وَشَى بذكْرِيَ وَاش
يتَقَصَّى أوتَارَهُ وذُحُولَهْ [1]

فكَتَبناَ مُعَوِّلينَ على حِلمِكَ
تَمحُو الإِصَار عنَّا الثقيلةْ

مَا أشَرنَا به لِزيْد ولاَ
عَمْرٍو ولا عَينُّوا لنَا تَفْصِيلهْ

وبين خطأ الفتوى وإساءتهم استخدامها :

ويَظُنونَّ أنَّ ذَاكَ علَى مَا
أضْمَرَوُا مِنَ شنَاعَةٍ أو رذيلةْ

وَهْوَ ظَنٌّ عَنِ الصَّواب بَعِيدٌ
وظَلاَّمٌ لم يُحسِنُوا تأويلَهْ

وراح يرجو قبول اعتذاره عما صدر منه ، ويتوسل بحياة السلطان :

فاقْبلُوا العُذْرَ إنَّنا اليومَ نَرْجُو
بحياةِ السُّلَطان مِنكمْ قَبُولَهْ

---

(١) الذحل : العداوة ، والجمع : ذحول .

ثم أخذ يستعطفه بأنه غريب ، وضيف ونزيل عندهم ، يرجو رضاهم ، ويطلب منهم أن يدركوه بالرحمة والعفو فقد نفد صبره :

وَأعِينُوا على الزَّمان غريباً
يشتكي جَدْبَ عَيْشِهِ ومُحُولَهْ
جَارُكم ضيفكُم نزيلُ حماكم
لا يُضيعُ الكريمُ يومًا نَزِيلَهْ
جَدِّدُوا عنْدَهُ رُسُومَ رِضَاكُمْ
فرُسُومُ الكرامِ غيرُ مُحيلةْ
دَارِكُوهُ بِرَحْمَةِ فلقد أمْ
ستْ عُقُودُ اصْطِبارِهِ مَحْلولةْ

ثم يرجو عطفهم ، وإحسانهم إليه :

وانحلوه جَبْرًا فَلَيْسَ يُرَجَّى
غيرَ إحسانِكم لِهَذى النَّحِيلَةْ

ثم يمدح الجوبانى ، ويذكر له أنه أقصى عن الخانقاه التى كان يعمل بها ، ويريد العودة إليها ، بل هى أقل مما كان يتمنى ، ويطمع أن يسند إليه غيرها من مناصب ، ومنازل :

كـيفَ بالخَـانقـاه يُنقَلُ عنِّى

لا لذَنْبِ أو جُنْحـةٍ منَقُـولَة

بَلْ تـقلَّدتُـهـا شَـغُـوراً بمرْسُـو

مٍ شـريفٍ وَخِلعَـةٍ مَـسْـدُولَـة

ولقـدْ كُنتُ آمِـلاً لِسـوَاهَا

وسِـوَاهَا بِـوَعْـدِه أن يُنيلَه

ثم طلب من الجوبانى إبلاغ خبره إلى السلطان ليعفو عنه ، وتوسل بصلته به ، ودعا له بالسعادة على ما يقدمه من شفاعة وخير :

أبْلِغَـنْ قِـصَّـتى فـمـثلُك مَنْ يَقْـ

صدُ فِعْلَ الحُسْنَى بمَنْ يَنْتَـمى لَهْ

واغْنَمُـوا مِنْ مَثُـوبتى وَدُعَـائى

قُـرْبَةً عند ربّكُم مَـقْـبُـولَةْ (1)

(1) التعريف ص ٣٣١ : ٣٣٤ .

(٨) النسيب والتشبيب والحنين إلى الأهل والوطن

كان ابن خلدون - عند السرور - يصطنع طريقة العرب فى بدء قصائده بالنسيب والتشبيب[1] دون أن يشير إلى محبوب معين يطرب له ويتعبه هواه، لكنه ينسب - على عادة العرب - ويبكى على الأطلال ويتخيل الأحباب الذين غادروها وكانوا كالبدور والظباء يملئون جنباتها بالحياة والحركة، كما كان العرب فى المشرق يفعلون منذ بدء حياتهم الشعرية.

وكان يتصور المقيمين والراحلين من الأحبة، وكيف تبدل المكان من أنس - بحلولهم وإقامتهم - إلى قفر موحش.

ويتصور أنهم هجروه، وفارقوه، وكانوا قرة عينه، ويعطى صوراً للوداع وما يجرى فيه من لهفة وشوق، وما ينجم عنه من حزن وكآبة، وما يحدث بعده من استمرار تعلقه بهم، وسؤاله عنهم، وهم غافلون عنه.

ومظهر الركب الراحل عن موطنه وهو يضم الأحبة، مظهر مؤثر مؤلم لنفس المحب، ومهيج لدموعه التى تسيل من المآقى منحدرة إلى حلقه فيشرق بها، ويغص لهذا التأثير العميق فى النفس البشرية التى جرت العادة أن تأنس وتمرح فى ساعات اللقاء، وتحزن وتألم لعذاب الفراق.

وينقل صوراً مما كان يجرى فى حياة شعراء العرب القدامى من لوم اللآئمين للمحب إذا حزن على فراق محبوبه، وعادة ما يتصدى الملوم للائم، ويحاول منعه عن اللوم وكفه عن العتاب، لأنه متمسك بالمحبوب لا يتحرك عن ذكره، ولا يقبل لوم الائمين، واللآئمات فيه، بل إنه يعد اللوم دليلاً على صدق الحب والوفاء للمحبوب.

---

(١) نسب بالمرأة نسبًا ونسيباً : شبب بها فى الشعر، القاموس ١/ ١٣٦، وشبب الشاعر : ذكر أيام اللهو والشباب وبفلانة، تغزل بها ووصف حسنها، الوسيط ١/ ٤٧، وشعر النسيب : هو الرقيق منه المتغزل به فى النساء، وغزل غزلاً : شغف بمحادثة النساء والتودد إليهن فهو غزل، وغازل المرأة : حادثها وتودد إليها، وتغزل : تكلف الغزل ويقال : تغزل بالمرأة، الوسيط ٢/ ٦٥٢، ٢/ ٩١٧، وما عند ابن خلدون من النسيب والتشبيب الذى يعد صناعة للشعر المتصل بالمرأة.

وقد اصطنع الشاعر ابن خلدون هذه المحاكاة التى يتناول فيها مناظر الحب، وحرارة اللقاء، وآلام البعد والتهاب الفراق، ومخاطبة الظاعنين، ومظاهر الأطلال المؤلمة الموحشة بعد فراقهم .

ولكنه ليس التقليد الضعيف، بل ربما بلغ الغاية فى المحاكاة ليكون معهم على قدم المساواة.

وتظهر براعة ابن خلدون وهو ينقل لوحة تذكارية للقاء أحبائه، وفراقهم على صورة بهية متألقة النبض الشعرى، فى مطلع قصيدته التى أنشدها فى رحاب السلطان أبى سالم ليلة المولد النبوى من سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

يصور فراق الأحبة، وهجرهم للشاعر، وأنهم رحلوا دون وداع، وبكاءه من أجل فراقهم على نحو مؤرق ربما أفضى به إلى الموت . . . يقول :

أَسْرفْنَ فِى هَجْرِى وفى تَعْذِيبِى
وَأَطَلْنَ مَوقفَ عَبْرَتى ونَحيبِى

وَأَبَيْن يَوْمَ البَيْن وَقْفَةَ سَاعَة
لوَداعَ مَشْغُوف الفُؤَادِ كَئِيب

لله عَهْدُ الظَّاعِنينَ وَغَادَرُوا
قلبِى رَهِينَ صَبَابَةٍ وَوَجِيبِ

غَربَتْ رَكَائِبُهُمْ وَدَمِعْىَ سَافِحٌ
فَشَرِقْتُ بَعْدَهُمُ بِماء غُرُوبِ

وراح يتصور اللائمين، وهم يكثرون من العذل والعتاب، وهو يصدهم عنه، ولا يطيعهم فيما يرومون من كفه عما هو فيه، وإصراره عليه دون كراهة لملامهم :

يَا نَاقِعـاً بالعَتْب غُلَّة شَوْقِهم

رُحْمـاكَ فـى عَذْلِي وَفَي تأنيبِي

يَسْتَعْذِبُ الصَّبُّ المَلاَمَ وإنَّني

مَـاءُ المَلاَم لـدىً غيـرُ شَرُوبِ

فهو يخاطب اللائمين له، ويدعوهم إلى الرحمة به، ويبين أنه لا يستحسن اللوم، ولا يتأثر به .

ويذكر الشاعر ما يفهم أن النسيب والتشبيب الذى لجأ إليه ليس حقيقياً، بل هو جرى على عادة شعراء المشرق فى ذلك .

مـاَ هَاجَنِى طَرَبٌ ولا أعتـادَ الجَوَى

لـوْلاَ تَذَكُّرُ مَنْزِلٍ وَحَبِيبِ

وكأنه يذكر فى هذا الموقف قول امرىء القيس :

قِفـا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيب وَمَنْزِل

بِسقْطِ اللِّوَى بيْنَ الدَّخُولِ فَحومَلِ

وقول حسان بن ثابت :

عَرَفْتُ دَيـارَ زَيْنَبَ بـالكثيب

كخَطِّ الوَحْى فيِ الوَرَق القشيب

تدَاولَهـا الرِّياحُ بكل جَوْنِ

مِنَ الوَسْمِيِّ مُنْهَمِرِ سَكُوبِ

فَـأضـحَى رَسْـمـهَـا خَلقًـا وأمْـسَتْ

يَبَـابًا بَعْـدَ سَـاكنِـهـا الـحَـبِـيب

ولذلك أخذ الشاعر ابن خلدون يذكر الأطلال وعبث الليالى والأيام بها، وما اعتراها من التهدم، والبلى بعد فراق ساكنيها من الأحبة الذين كانوا كالبدور والآرام:

أهْفُـو إلى الأطْلَالِ كـانَـتْ مُطلعًـا

لِـلبـدْرِ مِـنْهُمْ أَوْ كِنَـاسَ رَبِيـبِ

عَـبِـثَـتْ بِهَـا أَيْدِى البِـلى وترددَتْ

فِى عِـطفِـهَـا لِـلدَّهْرِ أىُّ خُـطُوبِ

تَبْلىَ مَـعَـاهِـدُهَـا وإنَّ عُـهُـودهَا

لِيُجِـدُّهَا وَصْـفِى وَحُـسْنُ نَسِـيبِى

وإذَا الـدِّيَارُ تَـعَـرَّضَتْ لِمتَـيَّـمٍ

هزَّتْـهُ ذِكْـراهَا إلى التَّـشْبِيبِ(١)

فالواضح أنه اتخذ النسبب والتشبيب عادة كشعراء العرب، على حين لم يكن على الحقيقة ذا محبوب معين استأثر بهواه وشجاه.

ولذلك فقد اتخذ النسيب والتشبيب طريقاً لافتتاح قصائده فى المدح .

وهذا النسيب الذى ذكرته مقدمة لافتتاح قصيدة أنشدها السلطان أبا سالم، ولما كانت قد واكبت ليلة المولد النبوى فإنه تخيل الركب المسافر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ يخاطبه ويتصور ما يعترض الركب من تعب الرواحل، ومشقة السفر، والرياح الصحراوية التى تهب عليه، وغبرة الغبار، وظمأ الأسفار وتعاقب

(١) التعريف ص ٧٠، ٧١.

الليل والنهار، وما تستلزمه الرحلة من أيام تطول لكن يقصرها ويذهب عناءها تعلقها برؤية خير الورى، وما يلوح من أنواره وطيب نفحاته [١]

وانتقل الشاعر - بعد ذكرى المولد النبوى الشريف - إلى مدح السلطان كما كان يفعل شعراء العرب فى رحلتهم إلى الممدوح، وبدء قصائدهم بالغزل والتشبيب دون أن يكون لهم - فى كثير من الأحيان - محبوب حقيقى يتحدثون عن ظعنه والتشوق إليه.

وهنا انتقل ابن خلدون إلى المدح حين قال :

وَرِثُوا اعْتِسَافَ البِيد عَنْ آبائِهِمْ

إرْثَ الخلاقةِ فى بَنى يَعْقَوب .. إلخ.

ومن هذا اللون من النسيب الذى افتتح به الشاعر ابن خلدون قصائده فى السرور قصيدته إلى السلطان أبى سالم حين وصلت إليه هدية ملك السودان فقد بدأها بالنسيب مبيناً أن لهب الأشواق قد زاد إلى من يحب، وشبت فى القلب حرارة الحب وإحراقه وآهاته وهو مستمر فى ذكر الحبيب لا ينساه على أمل اللقاء المرتقب لكن الأيام تأتى بما لا يريد فيجد المحبوب صادا عنه، مع ما كان يتمنى من وصاله وقربه، ولكن هذا الحب لا عهد فيه فكثرة تلهفه على المحبوب جعلته يتمادى فى الصد والهجر فلا عهد ولا ميثاق، وهو صابر على كل حال.

وقد ألح العذول لائما له كيف يتألم لمحب يصد عنه والشاعر يسمع لوم اللائم ولا يمنعه من اللوم ولا يرده بقوة بل يقابله باللين والسماحة لعله يعود إلى رشده فيعرف أن المحب معذور، وأنه إن كان قد ضل فلم يعرف الصواب من عذره ومساعدته ومعرفة حقيقة أمره فسيعود إليه يوماً ما ويدرك أن المحب مغلوب على أمره وأنه راشد فيما يفعله من الذكر والهيام، ثم إن الشاعر يتلمس الأخبار التى تأتيه عن محبوبه ويتخيل أى شئ يصله به حتى مر النسيم الذى يحمل إليه ما يهدئ روعه ويطفئ نار الحب فى صدره، ولكن كلما وصل إليه شئ من ذلك زاده وداً وهياماً،

---

(١) ذكرت شعره فى ذلك فى حديثى عن المدائح النبوية.

وقد كان يظن غير ذلك، وهو لايدرى ما يسكن جواه لأن الغرام يؤدى إلى تأجج نار الشوق ويجعل أثر التعلل ضعيفاً قليلاً . . . يقول :

قَـدَحَتْ يَدُ الأشْـواقِ مِنْ زَنْدِى
وهَفَتْ بِقَلبِى زَفْـرَةُ الوَجْـدِ

وَنَبـذْتُ سُلوَانِى عَلـى ثِقَـةٍ
بالقُربِ فاسْتَبْدَلْتُ بِالبُعْـدِ

ولَرُبَّ وَصْـلٍ كُنْتُ آمُـلُـهُ
فَـاعْتضْتُ مِنْهُ بِمُؤْلمِ الصَّدِّ

لاَ عَهْـدَ عِنْدَ الصَّبـرِ أطْلُبُـهُ
إنَّ الغَـرامَ أَضَاعَ مِنْ عَهْـدِى

يَلْحَى العَـذُولُ فَمَـا أُعنِّفُـهُ
وأقُـول ضَلَّ فَأبْتَغِى رُشْـدِى

وَأُعَارِضُ النَّفَحَـاتِ أسْأَلُهَـا
بَرْدَ الجَوَى فَتَـزِيدُ فى الـوَقْـدِ

يَهْـدِى الغَـرَامُ إلَى مَسَالكِـهَا
لتعلُّلِى بِضَعِيفِ مَا تُهْـدِى[1]

وقبل أن ينتقل إلى المدح ذكر الركب المسافر وأخذ يسائله لعله يجيبه عن خبر أحبابه وعن مساكنهم فى نجد، ورامة معربا بذلك عن محاكاته لما كان يفعل نظراؤه من شعراء المشرق . . . يقول :

---

(١) التعريف ص ٤٧٠.

يا سَـائِقَ الأظعـانِ مُـعْـتـسِـفـاً

طيَّ الـفَــلاةِ لِـطيَّــةِ الوَجْــدِ

أرِحِ الرُّكـابَ فَــفى الصَّـبـا نَبـأٌ

يُغْنِى عَنِ المُسْــتَنَّةِ الــجُــرْدِ

وَسَـلِ الرُّبـوعَ بَرامَــةِ خَــبَـــراً

عَنْ ســاكِنِى نَجْـــدِ وَعَنْ نَجْـدِ

مَـــالِى تُلامُ عـلى الهَـــوَى خُلُـقِى

وَهِى الـتِى تأبـى سِـــوَى الحَـمْـدِ

لأتَيْتُ الاَّ الرُّشْـدَ مُـــذْ وَضَــحَتْ

بالمُسْـــتَــعِـين مَـعَـــالِمُ الرُّشْـــدِ

نِعْـمَ الخَلِيـــفَـــةُ فِـى هُدًى وتُـقًى

وبِـنـاءِ عِـــزٍّ شَـــامِخِ الـطَّـوْدِ [١]

وحين كان الشاعر فى جوار ابن الأحمر فى غرناطة أنشده من عذب قصائده بعد أن نال الحظوة عنده، واتخذ النسيب فى بعض مطالع قصائده.

ففى قصيدته فى ختان ولد السلطان ابن الأحمر سنة خمس وستين وسبعمائة، يبدأ بالحديث عن الشوق، وذكرى الحبيب، ووفائه بالعهد لأحبابه، وإن نأوا عنه، وبعدت ديارهم وأنه يطرب لذكرهم، ويحن إليهم ولما بينه وبينهم من رباط الود والمحبة، وما يعترضه من رؤية طيف الحبيب يجعله لا يكاد ينام، وتحرك أشواقه الحارة ما يتلمسه من أفكار وأخبار تأتيه عنهم.

ويخاطب خليليه - على طريقة العرب - أن يحدثاه عن أحبابه حديث السعادة

(١) التعريف ص ٥٦، ٥٧.

والأنس لا حديث الفراق الذى يتعبه ويؤلمه لأن ذلك تكون له آثاره عليه، وعليه أن يقف مع صاحبه لكى يقضيا حق الحب، فيشاهدا آثار المحبوب ورسم المساكن البالية بعد رحيله عنها لعلهما يطفان نار الجوى والغرام بما يذرفان من الدموع التى تهدئ من الأشواق والحنين، وينهى صاحبه عن لومه أو عذله فى هواه لأن من يحبهم يمثلون قطعة نفسه ومهجته التى بها حياته وبقاؤه :

صَحَا الشَّوْقُ لوْلاَ عَبْرةٌ ونَحيبُ
وذكرى تُجِدُّ الوَجْدَ حِين تَثُوبُ
وَقَلب أَبَى إلاَّ الوفاءَ بِعَهْده
وإنْ نَزَحَتْ دَارٌ وبَانَ حَبِيبُ
وَلله مِنِّى بَعْد حَادثَة النَّوى
فُؤادٌ لتذْكَارِ العُهُود طرُوب
يُؤَرِّقُهُ طَيْفُ الخَيال إذاَ سَرَى
وتُذكى حَشاهُ نَفْحةٌ وهُبُوبُ
خَليليَّ إلاَّ تُسْعِداَ فَدعَا الأسَى
فإنىٌّ لما يدعُو الأسَى لَمجيبُ
أَلِماَّ علَى الأطلالِ يقْضِى حُقُوقَهَا
مِنَ الدَّمْعِ فياَّضُ الشُّئُون سَكُوبُ
وَلاَ تَعْذُلاَنِى فِى البُكَاء فإنَّهاَ
حُشاشَةُ نَفْسِى فى الدُّمُوعِ تَذُوب[1]

(١) التعريف ص ٨٨.

وهو بهذا يحاكى علقمة الفحل فى قصيدته :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ

بعيد الشبابِ عَصْرَحَانَ مَشِيبُ

يُذَكِّرُنِى لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا

وَعَادَتْ عَوَادٍ بيننا وَخُطُوبُ

وفى قصيدته التى أنشده إياها ليلة المولد الكريم من السنة السابقة ذكر طائفة من الأبيات كثيرة كلها تمثل هذا اللون من النسيب ، دون أن يشير إلى المولد النبوى بشئ ، فهى تمثل مقدمة غزلية دون إشارة إلى مدح الممدوح فيها ، ولعلها جزء من قصيدة فقد بعضها ، وفى هذا الجزء الذى ذكره من مطلع القصيدة حديث عن الطيف الذى لا يريد الجود على من يحب إلا وهما فكيف الوصول إليه ولو يعلم أن الدمع نافع لبذله سخيا ، ولكنها أمان كاذبة ، وطمع خادع يعترى الذى تيمه الشوق ، ويلجأ إلى التقليد بخطاب الصاحبين ، والحديث معهما عن الحب ، واللوعة والشكوى لما يكنه قلبه ، ويكتم من الشوق للمحبوب ويخاطبهما بأن يأخذا العهد له مع الأحبة الذين يسكنون الصحراء ، وأن يذهبا إلى الحى الذى يسكن فيه أحبابه ليخبراه بما صنع به الشوق ، والغرام ، وأن يحدث الأحباب عن الشجن الذى هو فيه وأنه لا يستطيع السلوان ، ثم يخاطب الأطلال التى أقفرت من الأحبة ، ولم يعد فيها إلا أصوات الحمائم التى تهتف ، وأنه حاول أن يحدثها عن الحب فأبت ، وتنكرت له ، وإن كان قد توسم فيها آثار المحبين :

أَبَى الطَّيْفُ أنْ يَعْتَادَ إلاتَوهُّمَا

فَمَنْ لِى بأنْ أَلقَى الخَيَالَ المُسَلِّمَا

وقد كُنْتُ أَسْتهدِيهِ لو كَان نافِعِي

وأَسْتَمْطِرُ الأَجفَانَ لو تَنْقَعُ الظَّمَا

وَلكنْ خَـيَـالٌ كـاَذِبٌ وَطَمـاَعَــةٌ

تُعَلِّـلُ قَلبـاً بـالأمَـانِـى مُـتَـيَّمـــا

أيَا صَاحِـبَىْ نَجْـوَاىَ والحُـبُّ لَوْعَـةٌ

تُبِيُح بشـكْوَاهَا الضَّمِـيـر المكَـتَّـمـا

خُـذا لِفُؤادِى العَـهْـدَ مِنْ نَفَسِ الصَّبـا

وظَبْىِ النَّقَـا والبـانِ منْ أجْـرَعِ الحِـمَى

ألاَ صَنَعَ الـشَّـوْقُ الذّى هُو صَـانِعٌ

فحَـيٌّ مُقَـيمٌ أقصَـرَ الشَّوْقُ أوْ سَـمَـا

وإنِّى لـيَـدْعُــونى الـسُّلُـــوُّ تَعَلُّــلاً

وتَنْهَـانِى الأشْـجَانُ أن أتـقـدَّمَـــا

لِمنْ دِمـنٌ أقْـــفَـــرْنَ إلاّ هَوَاتِـفَــا

تُرَدِّدُ فِـى أطْلالِهِـنّ التَّـــرنُّـمــــاَ

عَـرَفْتُ بِهـا سِـيمَـا الهَـوى وَتنكَّرتْ

فَـعُـجْتُ علــى آيـاتها مُـتَـوَسِّـمَـــا

ثم ذكر الشاعر ابن خلدون ما يدل على أنه يحاكى شعراء المشرق فى هذا اللون من النسيب، فتـصـور مـا يتـصـورونه من عـادة المحبين فى ذهابهم إلى أطلال الديار، ووقوفهم عليها، وهم يتوهمون أنها تسليهم، وتذكرهم بأحبابهم، وراح يتحدث عن الطيف الذى يأتى بالليل إلى من يحب فتظهـر له أنواره، ونار الشـوق التى تشع منه، وابن خلدون يرى نفسه هذا المحب الذى جاءه طيف المحبوب بعد فراق طويل، فذكره بعهـد اللقاء الماضى، وقد جاء على صورة المرتاع للبعاد من الشوق فبكى له الشاعر وابتسم له، ثم بات وهو يروى ظمأ طيفه بالدموع، وراح يذكره الطيف مكان الهوى القديم، وأنه سلم عليه، وذكره بأنه من ديار نجد ليذكره بعهد الصبا والشباب، حينما

كان مع محبوبه هناك ,حيث الأنس، والغيد الجميلات، وهذا دفع الشاعر إلى الحنين إلى تلك الأيام، وتلك الأماكن التي تنقل فيها، وسعد بها . . . يقول :

وَذُو الشـوْقِ يـعْـتَـادُ الربُّـوغ دوَارسًا
ويعـــرفُ آثارَ الـدِّيار توَهُّـمَـــا
تـأوبَنى واللَّـيْلُ بَـيْنِى وبَيْنَـــهُ
وميضٌ بـأطْرَافِ الثَّـنايَا تَضـرَّمَـا
أجَـدَّ لى العَـهْدَ القَـدِيم كَـأنَّـــهُ
أشـارَ بتـذْكَارِ العُهُـودِ فـأفْـهَمَـــا
عَـجِـبْتُ لمرْتَاعِ الَجـوانِـح خَـافق
بكَيْـتُ لهُ خَلفَ الدُّجَى وَتـبـسَّـمـــا
وَبِـتُّ أُرَوِّيـــه كُـئُـوسَ مَـدَامِـعِى
وَبَات يُعـاطِينا الحَديث عـن الحِمَى
وَصَافَـحْتُـهُ عَنْ رَسْمِ دارٍ بِذِى الغَـضَا
لَبِسْتُ بهـا ثوب الـشَّـبِيبـة مُعْلَماَ
لَعَـهْدِى بِهـا تُـدْنِى الظِّبَاءَ أوانـسًا
وتُطِلعُ من آفـاقِـهَـا الغِـيد أنْـجـمَا
أحِنُّ إليْــهاَ حَـيْثُ سَارَبىَ الـهَـوَى
وأنجـدَ رَحْـلِى فـى البِـلاَدِ وأتْهــمَـا [1]

---

(١) التعريف ص ٨٩، ٩٠.

وواضح أنه يقلد فى هذا النسيب شعراء المشرق، وقد اقتبس من مطلع معلقة عنترة بيتاً من هذا النص، واقتبس الصور العامة مما شاع عندهم عن الطيف وقدومه، والحديث معه . . يقول عنترة :

هَلْ غَادر الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوهُّمِ

وقد أخذ يجرب قريحته فى مثل هذا اللون من حديث الأطلال، فقال وهو فى رحاب السلطان أبى العباس أحمد :

«وصلّيت به عيد الفطر على البطحاء، وخطبت به، وأنشدته عند انصرافه من المصلى أهنئه بالعيد وأحرضه» :

هَذِى الدِّيارُ فحَيِّهنَّ صَبَاحَا
وقف المَطَايا بَيْنهُنَّ طِلاحَا [1]
لا تَسْأل الأطْلاَلَ إنْ لَمْ يروها
عَبَرَاتُ عَيْنِك واكِفاً مُمْتَاحَا
فَلَقَدْ أخَذْنَ عَلَى جُفُونِكَ مَوْثِقًا
ألا يُرَين مع البِعَادِ شِحَاحَا
إيه عَنِ الحىِّ الجَمِيع وربَّمَا
طَرِبَ الفُؤَادُ لذكْرِهمْ فَارتَاحَا

(١) طلاحا : أضمرها الكلال وأجهدها الإعياء من طول السفر .

وَمَنَازِلٍ لِلظَّاعِنِينَ اسْتَعْجَمَتْ

حُزْنًا وكَانَتْ بالسُّرُورُ فصَاحَا [1]

وقد قال بعد هذا : «وهى طويلة ولم يبق فى حفظى منها إلا هذا » ، فمعنى ذلك أن بعد المطلع أبياتاً أخرى ضاعت من القصيدة وهى التى تمثل التهنئة بعد المطلع الغزلى .

وفى الحنين إلى أهله كان يذكر الأطلال والمساكن التى كانت للأحبة ، وهو يتصورهم وقد نأوا عنه ، وخلفوا له الهم ، والآلام ، وهو لا يصبر على فراقهم ، ويسأل الديار ، وهو بعيد عنهم ، ووقوفه يبكى على فراقهم ، وأنه لا يسلو عن ذكرهم ، وهو يبحث عنهم ويتمنى أن تأتيه نسمة من جهتهم تخبره عنهم وتسليه ، يقول وهو فى ظلال السلطان ابن الأحمر :

حَيِّ المَعَاهِدَ كانَتْ قَبْلُ تُحْيِينى

بواكِفِ الدَّمْعِ يُروِيها ويُظْمِينى

إنَّ الأُلى نَزَحَتْ دَارِى ودَارُهُمُ

تَحمَّلُوا القَلْبَ فى آثارِهِمْ دُونِى

وَقَفْتُ أَنْشُدُ صَبْراً ضَاعَ بَعْدَهُمُ

فِيهم وأسْأَلُ رَسْمًا لايُنَاجِينى

أُمثِّلُ الرَّبْعَ مِنْ شَوْقٍ فَأَلْثُمُهُ

وَكَيْفَ والفِكْرُ يُدْنِيه ويُقْصِينى

ويَنْهَبُ الوَجْدُ مِنِّى كُلَّ لُؤْلُؤَةٍ

مازَالَ قَلْبِى عَلَيْها غيرَ مَأْمُونِ

---

(١) التعريف ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

سَقَتْ جُفُونِي مَغَانِي الرَّبْعِ بَعْدَهُمُ
فَالدَّمْعُ وَقْفٌ عَلَى أطلالِهِ الجُونِ
قَدْ كَانَ للقَلْبِ عَنْ دَاعِي الهَوَى شُغُلٌ
لَوْ أنَّ قَلْبِي إلى السُّلْوانِ يَدْعُونِي
أَحْبَابَنَا هَلْ لِعَهْدِ الوَصْلِ مُدَّكِرٌ
مِنْكُمْ وَهَلْ نَسْمَةٌ عَنْكُمْ تُحَيِّينِي
مَالِي ولِلطَّيْفِ لاَ يَعْتَادُ زَائِرُهُ
وللنَّسِيمِ عَلِيلاً لا يُدَاوِينِي [1]

ثم انتقل إلى الحديث عن نجد وساكنيها والتشوق إليهم، ولعل ذلك يرشد إلى محاكاته لشعراء المشرق وتذكرهم لمواطن أحبابهم فى نجد، وتقليده لهم فى ذلك.

وانتقل إلى المدح لابن الأحمر فوصف إيوانه وما لقيه فى جواره من الحظوة، وشعره الذى حيا به الممدوح.

هذا فى أوقات سرور الشاعر ابن خلدون، وفى أوقات همه وبؤسه كان يكثر فى مطالع القصائد وفى أثنائها من الحنين إلى أهله ووطنه، ويورد صوراً للقاء بهم، والفراق والركب المسافر، وكيف أنه متشوق إليهم، ويتمنى العودة إلى وطنه ليعيش بينهم، ويتذكر أيام شبابه ونشأته فيه، وما أفاده منه، وعاد إليه من مسرات فى الماضى البعيد.

فحينما حبسه السلطان أبو عنان، وأراد أن يستعطفه لإخراجه من السجن كتب قصيدته الطويلة التى ذكر منها فى التعريف بضعة أبيات، وذكر ابن الأحمر كثيراً منها.

---

(١) التعريف ص ٨٥، ٨٦.

والقصيدة تشتمل على كثير من الأبيات فى هذا الحنين والتشوق إلى الأهل، وحب الوطن .

قال - بعد أبيات قليلة فى مطلعها :-

أحنُّ إلى إلْفِى وقد حَال دُونَهُمْ

مَهَامه فيح دُونَهُنَّ سَبَاسِبُ

وتمثل حاله عند سفره من بلاده وأهله ووداعهم فى وقت العشى، وما ذرفه من الدموع وهو يودعهم دون كلام، وهو ينظر إلى الديار بعيون باكية وقلب مروع، وهو يبكى، وهم يبكون، وقد أظلمت الدنيا وعبست بعد بشر وسرور .

سَلَوتُهُمُ الأَ ادكَارَ مَعَاهد

لها فى اللَّيالى الغَابراتِ غَرائبُ

وإنَّ نَسيمَ الرِّيح مِنهُمْ يَشوقنى

إليهِمْ وتُصبْنِى البُرُوقُ اللَّوَاعِبُ

وَلمْ أنسَ لاَ أنسَ الوَدَاع وقد جَرَتْ

دُمُوعٌ ورَقَّتْ لِلفراقِ رَكَائِبُ

عَشِيَّة بَانواْ والقُلُوبُ جوَامِدٌ

وكَانَ عقيقٌ فى النَّواظِرِ ذائبٌ

وَقَفْنَا ولاَ نجْوَى سِوَى بثٍّ أعْين

وَشى بِالهَوَى مِنها دُمُوعٌ سَواكِبُ

نُخَـاطِبُ رَسْمَ الدَّارِ شَـوقـًا وَمَـالَنَا
على القُـرْبِ إلاَّ مِنْ صَـدَاهَا مُجاوِبُ
مَـضَوْا بِـي بِنجْوَى السَّيْـرِ إلاَّ تلفتًّـا
كـمـا التَـفَـتتْ بَين الأراك الـرَّبائـبُ
وأتبـعْـتُـهُمْ طَرْفِي وَقلبـى وَمَـا دَرَوْا
بـأنىً عـلَـى الآثـار مِنْـهُـنَّ ذاهِـبُ
وَمَـا رَآعنِي إلاَّ المـآقِي تَحـدَّرَتْ
بهِـنَّ قُلُوبٌ فـي الدُّمُـوعِ جَـوَائبُ
وَقَـدْ طُوِيتْ شَمْسُ الأصيل بأفْـقِهـا
كـمـا نُشِـرَتْ لِلَّيْلِ مِـنْهـا غَـيـاهِـبُ

وبعد تصوير الركب وهو يغادر الوطن، وينطلق فى ربوع الصحراء بين أن فى النفس ما فيها من الأشواق فإن أظلم الجو فإن القلوب مشتعلة بنار الشوق :

وإنْ يكُ كُلُّ الشُّهْبِ أمْسى فَـهـذِه
بصـدْرِى شُـهْـبٌ للفـراقِ ثواقِبُ

ثم عرج على ذكر بلده (تونس) وذكريات شبابه، ونشأته فيها، ودعا لها بزيادة العلم :

رَعَى اللهُ عَـهْـدًا ضَـمَّـهُ أُفْقُ تُونس
وَمـعْـهَـدُ أُنْـسٍ لم تَرُعْـهُ النَّوَائبُ
وَجَـادَتْ عَلَيـهِ الغَـادِيـاتُ بما حـوت
من العِلمِ لاَ مَـاتَحْتَـويـهِ السَّحـائبُ

بِلادٌ بِهَــا غَضّ الشّــبــاب تمائمى
ولا مَسّ فـيـهَـا التُّـربَ مِنّى التّـرَائبُ
يُذكِّــرُنى عَـهْـدُ الـرِّضَـا فى جنَابِـهَـا
أمَـان تـقـضّتْ لي بِـهَــا ومَــشَـارِبُ
فــأصْــبُــو ولكنْ أيْنَ مـنِّى مَـــزَارُهَا
وأبكِي وإنْ لمْ تُجْـزِ عَـنِّى السَّـحَـائِبُ
وَيقْلِـقُنِى شَــوْقٌ تَـضَــرَّمَ بالحَـــشـا
فـيُــحْـرِقُـنِى لوْلاَ الدُّمُــوعُ لـواهـــبُ

وفى قصيدته التى رفعها الى الوزير مسعود بن رحو بن ماساى ليتوسط له لدى الوزير عمر بن عبد الله - وهو بالمغرب الأقصى - ليعود إلى وطنه بالمغرب الأدنى وقد منع من ذلك، ذكر حنينه إلى أهله ووطنه فى خلال هذا الضيق والشقاء الذى ألم به، فأشار إلى غربته :

وَلكنْ نأى يـالشِـعْبِ عَـنِّى حَـبَـائب
شـجَـاهُنَّ خَطبٌ لِـلفـراقِ طَوِيــــلُ
عَــزيزٌ عَلَيْـهِـنَّ الَّذِى قَـد لقِـيـتُـهُ
وأنَّ اغـــتـــرَابِى فى الـبِــلاد يَـطُولُ

ويذكر وطنه (تونس) فيقول :

ذَكَـرتُكَ يـا مَـغْنى الأحِـبَّـة والهَـوَى
فـطارَتْ بِـقَلْـبِى أنَّـــةٌ وَعَـــويــل

وَحَــيِّـيـتُ عَنْ شَــوْقٍ رُبَاكَ كَـأَنَّـمَـا
يُمَــــثَّلُ لِي نُؤىٌ بِـهَـــا وَطُلُـــول

وإنِّى وإنْ أصْبَــحْتُ فِي دَارِ غُــرْبَةٍ
تُحَــيلُ الــلَّيَـــالى سَلوَتى وتُديـــلُ

وصَــدَّتْنِى الأيَّامُ عَنْ خَــيـرِ مَنْزِل
عَـــهِـــدْتُ بِـه ألأَيْضَــامَ نَـزِيـــلُ

لأَعْلَم أنَّ الخَــيْـرَ والشَّــرَّ يـنتَــهي
مَـــدَاهُ وأَنَّ اللـه سَـــوْفَ يُـديـــلُ[1]

---

(1) التعريف ص ٧٨، ٧٩.

الصـورة الفنيـة
فى شعر ابن خلدون

بدا أن ابن خلدون متعدد المواهب، وكما اكتسب شهرة عالمية فى وضعه أسس علم الاجتماع فإنه تضلع فى فنون كثيرة، وجانب اللغة والشعر مرتبط بعوامل البيئة والحياة أشد الارتباط.

وحياة ابن خلدون حفلت بتنوع فى صلاته بالحكام، والسلاطين، وتقلده عديداً من المناصب، والوظائف كتابية ودينية وسياسية.

وكانت الحياة تبتسم له فى جو حيوى رائق، فيسعد ويهنأ، وحيناً آخر تضيق السبل أمام عينيه، ويقع بين براثن الوشاة، ويناله عنت الحكام وتعسفهم.

من هنا اعتملت فى مسيرة حياته تجارب نفسية، وأدبية متنوعة، وجاشت بنفسه عواطف كثيرة ظاهرة حيناً ومكبوتة حيناً آخر.

وهيأته هذه التجارب، وتلك العواطف للتعبير عنها فى شعره.

ولابد أن تتهيأ للتجربة، والعاطفة عوامل الوضوح والانتقال من ذهنية الشاعر إلى عاطفة المتلقى وشعوره.

وينقل الشاعر صورة لما فى عصره، وحياته وخلجات نفسه فى تعبيرات بعيدة عن النقل المجرد، أو السرد، وقريبة من العرض الموحى المؤثر.

ويقول الأستاذ العقاد: «من الضرورى لنا أن نعرف نفس الشاعر .. ماهي؟ ومزاجه .. ما هو؟ والدنيا التى كان يراها ويعيش فيها كيف كانت تلوح لعينيه وتقع فى روعه، وتتمثل فى خياله، فإن كانت دنيا شائعة فهو من أصحاب النصيب الشائع

بين الأحياء، وإن كانت دنيا لها خصائصها، وألوانها، ومعالمها، وتقديراتها فهو صاحب رسالة خاصة فى الحياة، وشعره ثروة جديدة تضاف إلى نفوس الأحياء، لأنها تطلعهم من دنياهم على عالم جديد»[1]

ولا شك أن البيئة التى عاش فيها ابن خلدون حفلت بألوان من الصراع السياسى والاجتماعى مما جعل حديثه متنوع الأغراض والألوان.

والأدب المغربى لم يبدأ من فراغ بل انطلق على أساس التراث الأدبى للمشارقة فوجدت أغراض مشابهة لأغراضهم كالمدح، ووصف الجيوش، والمعارك والانتصارات، والنسيب .. إلى غير ذلك.

وسارت أشعار المغاربة متوسمة الأفكار التى شاعت عند المشارقة فى المدح بالشجاعة والفروسية، وتجييش الجيوش لملاقاة الأعداء وقهرهم، ومناصرة الدين والإشادة بالأحساب والأنساب، وكريم الأخلاق.

وقد كانت أشعار المشارقة معروفة لدى شعراء المغرب كشعر أبى تمام والمتنبى، والفرزدق والبحترى، ومسلم بن الوليد وأضرابهم.

وصور الشعر المنتزعة من البيئة، والحياة العربية سيطرت على الصور الشعرية فى المغرب، فصورة السماء وكواكبها، وهدايتها للسارين، وإزاحة الظلام أمور تدخل فى مخيلة الشاعر المغربى.

فابن خلدون يجعل صفات مدوحه ظاهرة كالنجوم وهادية مثلها، وأفكاره تزيل الحيرة كالنور بعد الظلام.

مَناقِبُ تحكِي الشُّهْبَ ضَوْءاً وَرِفْعَةً
فيسْرِي بها فى مَهْمه الخَطْبِ رَاكِبُ
وَفِكرٌ إذا ما أظلم الخَطبُ نيِّرٌ
وفَهْمٌ إذا ما أشْكَل العلمُ ثاقِبُ

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٦٤.

ويزيد خياله اتساعاً فى جعل الخطب ذا صحراوات يضل الذاهب فيها، وتصوير الباحث عن الصواب فى الرأى بالراكب فى ظلمات الليل فيجد ما يرشده ويوجهه .

وتستمد الصورة عناصرها من حركة المحسات وإبراز المعنوى فى صورة المحسوس، ولون الصورة ما بين قاتم مخيف، وناصع داع إلى الأمن والاطمئنان، وإن كانت عناصر الصورة من المألوف فى البيئة، ومن هنا تبدو الصور المألوفة مصوغة فى لون جديد.

ويجعل ابن خلدون للدين عماداً كان قد اعتراه الوهن والكسر فإذا به يجبر ويصح، وكأنه كان فى حال مرض فبرىء، أو فى حال تهدم فأقيم، وهذا يبرز أثر الإخلال بالدين، ومبادئه فى تضليل المضلين، ومحاولة التمسك به والعمل على استمراره فى توجيه دفة الحياة عند المدافع الأمين عنها وهو الممدوح.

جَبَرْتَ عِمَادَ الدِّين بَعْدَ انصدَاعه

على حِين لم يَجبُرْ له الصَّدْعَ شَاعِبُ

ثم إن الممدوح يرجح جانب الدين فى حياته، وحياة الناس على جانب الدنيا، وركن الملك محاط بالقوة التى تحميه من الجند المدججين بالسلاح، وصورة العزيمة القوية متمثلة فى هؤلاء القائمين على الأمر .

وهنا نلحظ الشكل والحجم على هيئة تصور فيها طبيعة السلطة، وهيبتها، وجلالها.

وَمهَّدْتَ ركْنَ المُلك فيك بعزْمة

تذُبُّ بها عَنْهُ الحُماةُ الضَّوَارِبُ

وصورة الخارجين على السلطان وقد لعبت برءوسهم الأحلام الخادعة، فاندفعوا فى العصيان، وكونوا فريقاً مناوئًا استتروا بالحصون التى ظنوها مانعة لهم، وتنقل الصورة أهداف حزب الشيطان، يناوئ حزب الله، وكيف يكون النصر حليفهم مع أن الرؤية السليمة تشهد بانتصار الحزب الإلهى، ويأتى الاقتباس من القرآن الكريم :

﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[1]، ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب﴾[2]، ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[3] . . . يقول الشاعر :

ولما قـضَى بِالشَّـر كُـلُّ مُكَذِّب
عَـصِىٌّ تُنَاجِيـهِ الأمـانى الكَوَاذِبُ
بـدأتهُـمُ بالعَـفْـو لـو أنَّ سَـعْـيَـهُمْ
حَـمِيـدٌ لما سَاءَتْ لَدَيْهم عَـوَاقِـبُ
ولكِنْ أبوْا إلاَّ جِـمَـاحًا ومـا دَرَوْا
بأنكَ حِـزْبُ الله واللهُ غـالِـبُ
ولجُّوا علَى ظَنٍّ بأنَّ حُـصُـونـهُمْ
مُـمنَّعـةٌ لوْ أنَّ غَـيْـرَكَ طَالِـبُ

وهو بهذا الاقتباس يستمد المعانى الدينية وينقل جوها النفسى ويحرك المشاعر من خلالها، غير أنه ينقصه الترتيب بجعل البيت الأخير قبل الذى قبله ليطرد المعنى وينسجم، وهو فى هذا متأثر بقول المتنبي :

طَلَبْـتَـهُمُ علَـى الأمْـواهِ حَـتَّى
تَخَـوَّفَ أنْ تُفَـتِّـشَهُ السَّـحابُ

---

(١) المجادلة، الآية ١١ .

(٢) الحشر : الآية ٢ .

(٣) الصافات، الآية ١٧٣ .

تُكَـفِكـفُ عَنْـهُمُ صُـمَّ العَــــوالِــي

وَقَـدْ شَــرِقَـتْ بِظُعنهـم الشِّــعــابُ

وليْسَ مــصِـيــرهُنَّ إليْكَ شـيــئًا

وَلا فى صَــــوْنِـهن لَـديكَ عَــــابُ (١)

والمدح بالشجاعة وبحماية الجار، وبمد يد العون والكرم من صفات المجتمع العربى.

فقوم الممدوح يطعنون الفرسان فى معركة حامية الوطيس ينتشر فيها االغبار المثار من آثار النزال والقتال والحركة الجياشة، ولا يبخلون أن يقدموا هداياهم، وهباتهم من أجود الخيول العربية، وصورة عرض الجار المحفوظ من أن تلوكه ألسنة المجالس الحاقدة والمعادية، وهى من مألوفات البيئة العربية التى تمتاز بالنجدة والكرم .

وأجد الشاعر - كما يجده المطالع لشعره - قد حشد ما يمكن حشده من ألفاظ اللغة وغرائبها واختار صوغها من أسماء الفاعلين والمفعولين ليجمع إلى جانب الجزالة فى الألفاظ حسن الدلالة وثباتها، (عوابس - مثار النقع - سبيب - المقربات - صوافن - خوار العنان) :

الطَّـاعِنُونَ الخَـــيلَ وهْى عَــــوابِسٌ

يَغْــشَى مــشَــارُ النَّـقْع كُلَّ سَــبِــيب (٢)

والوَاهِـبُــون المُقْــرَبَات صَــوَافِـنًا

مِنْ كُـلِّ خَــوَّار العنان لَـعُــوب (٣)

---

(١) ديوان المتنبى بشرح اليازجى ٢/ ١٩٦ وما بعدها .

(٢) السبيب : شعر الناصية والعرف من الفرس، أو هو الخصلة من الشعر .

(٣) المقربات من الخيل : التى تقرب وتكرم ولا تترك لئلا يقربها فحل لئيم، الصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم، فرس خوار : لين العطف وذلك مما يستحسن فيه.

والمَانِعُــونَ الجَــارَ حــتَّى عــرضــهُ
في مُنْتَــدى الأعــدَاء غــيــر مَـعــيب

واستخدام الألفاظ الجزلة، وحسن اختيارها مما يبرز الصورة، ويعطى المعنى الملائم حسناً وتأثيرا.

وكما يقول عبد القاهر عن مواقع الكلمات : (المزية إنما تعرض بسبب المعانى، والأغراض التى يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض، بل ليس من فضل ولا مزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذى تريد والغرض الذى تؤم)[1] .

والبحر من أدوات ابن خلدون يجعله فى عداد ما يماثل الممدوح، ويثير التساؤل عن مدى الموازنة بين البحر فى اتساعه، وكثرة مائه، وثوران أمواجه، والرياح التى تحركه، وبين ممدوحه فى هيبته وعزيمته التى ترهب الأعداء :

سَـائِلٌ بِهِ طَامِي العُـبَـاب وقـد سَرى
تُزْجِــيــه ريحُ الـعــزْم ذَاتُ هبُــوُب

واختيار (طامى العباب)، مكان (البحر) مما يعطى التهويل الملائم للصورة، وأثرها فى نفوس المشاهدين والسامعين بهذه الكناية اللطيفة.

وهل لاستبدال الألفاظ من أثر ؟

فالشاعر المجيد هو الذى يختار ألفاظه ويهيئها للجو الشعورى، والصياغة التى تزخر بثورة الفكر واستثارة الوجدان .

ويصور ابن خلدون ما فى الممدوح من الموازنة بين ما يقتضى القوة وما يقتضى السماحة، وهذا جعل دولته متمتعة بالأمن، لا يعتدى عليها معتد أو خارج، ومتمتعة بالنعمة والرخاء لما ييسره فيها من سبل الخير، والدعوة إليه، وهكذا فالمعالى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٣ .

تحتاج إلى جهد وعناء يدفع إليه صاحبه دفعاً، وتحتاج إلى فتح أبوابها، وتذليلها، وكأنها دابة لاتقاد بطريقة واحدة عنيفة دائما أو لينة دائماً بل لابد من هذا وذاك ليسهل قيادها :

كم رَهْبَــة أو رغبــة لك والعُــلا

تُقْتـادُ بالتَّـرغـيب والتـرهيــب

وهذا التجسيم المحسوس والحركة المرئية تبعث فى النفس الإقناع، وتقيم الحجة والدليل.

ثم إن الممدوح (يحمى المعالى) ولا شك أن تصوير التمسك بما يعلى شأن الوطن وساكنيه إذا كان فى ظل الرعاية والعناية كان دليل يقظة الحاكم، وجاءته المكارم وجليل المفاخر والتقدم طيعة لا تمس بسوء من العابثين والمفسدين، وتصويرها بصورة المحمى عينا تجسيم وتشخيص مقرب للمعنى، وداع إلى معرفته وحسن استيعابه :

تَحــمْى المَعـالى غـادِيا أو رائحـاً

وحـديدُ سـعـدك ضَامِـنُ المطلُوبِ

وصورة الجبل من صور الطبيعة التى تشتمل عليها البيئة العربية فى الشرق والغرب فإذا صور الممدوح وقد علا فوق شاهق فمن غير الممكن أن يصل إليه غيره فى مكانته وسموقه، وهو مرهوب الجانب بعيد الهمة .

ويأتى التعبير بورى الزند مقروناً بالعزم المتوقد للممدوح، كل ذلك فيما هو حسى ملموس يترجم المعانى الكلية غير المدركة بالأبصار لتصبح فى مرمى الفكر مرئية مشاهدة.

وورود المنهل العذب للشرب منه أمر مألوف فى البيئة العربية، لكن الشاعر ينقله إلى عالم المعنويات فليس المشروب ماء الورد بل ماء العز والعطاء الواسع للممدوح،

والآمال المتحققة مثل جنة الخلد فى تنوعها، وقيمتها الغالية، والشاعر يجعل الآمال وردًا وجنة خضراء طيبة الشراب والثمار، حيث لا شراب، ولا ثمار، ولكن أمنيات، ووظائف وأعمال انتقلت من مجال المعنى الوجدانى إلى عالم الحس والجمال:

لـلّــه مِنّـــى إذ تـأوّبـنـى
ذكْـــراهُ وهْو بشـــاهِقٍ فـــرْد

أوْريْت زنْد العَــزْم فى طلبى

....

ووَرَدْتُ عَنْ ظمـــأ مناهِـلَهُ
فَـــرويت من عـــزٍّومن رِفْـــدِ

هِـى جنَّـة المأوى لمـنَ كـلفت
آمـــالُه بمطالـب المجـــد

والتأثر واضح بالآيات القرآنية بذكر جنة المأوى، والآمال والأمانى واقفة بأبواب الممدوح ومتجهة إليه، وإليها يقصد أصحاب الحاجات، وكيف صور الشاعر قدوم الوافدين للقاء الأمانى عند باب الممدوح وأنها صورة حية متحركة، لاستقبال الوافدين وتعلق الآمال بهم، وإقبالها عليهم إقبال المدرك للكرم وحسن البشر وإجزال العطاء وعدم رد أحد دون تحقيق مآربه :

هَلْ غـيـرُ بـابِكَ للغـرِيـب مـؤمَّلُ
أو عَنْ جَنابِك للأمـــانِى مَـــعْـدِلُ

واستعمال أسلوب الاستفهام يترك للنفس أن تفكر كيف يحسن الاعتراف والإقرار للممدوح بما نسب إليه .

ويصور الشاعر وجوه الممدوحين بصورة الوجوه التى تظهر من وراء القناع تعبيراً

عن الحياء والتمسك بما يرضى حسن السلوك مع الطالبين، وصورة الفرح وهى تجعل الوجوه مشرقة مبتهجة تلون وجوههم بلون السرور، فهى وجوه لا تعبس فى وجه طالبى الخير، كما قال زهير عن ممدوحه هرم بن سنان:

تراهُ إذا مــاَ جِــئْتــهُ مُـتَــهلِّلا

كــأنك تعطيــه الذّى أنتَ ســاَئلُهْ

وكذلك يقول ابن خلدون :

حَيْثُ الوُجُوهُ الغُرُّ مَنَّعَها الَحياَ

والبشرُ فى صفَحاتِها يَتَهَلَّلُ

والمدح بالدين والتمسك بالأخلاق والانتماء إلى أهله جانب شهدته بيئة المغرب لأنهم كانوا يريدون ألا يستقل المشارقة بالاتصاف بالدين وحمايته ولماذا لا يكون لأهل المغرب مثل ما لأهل المشرق فى هذا الجانب أيضا ؟ ولماذا لا يكون الاعتزاز بالصحابة ومن تسمى باسمهم :

مِنْ شيعة المهدىِّ بلْ منْ شيعة

التَّوحيد جاءَ به الكتابُ يفصِّلُ

قومٌ أبوَ حفْص أبٌ لَهُمُ ومَا

أدْراك والفارُوق جدّ أوّلُ

ويلحظ على ابن خلدون أنه يكرر كثيراً من المعانى فى قصائده فمن ممدوح إلى آخر تجد الوصف بالإشراق والتلألؤ، وجعل ذلك كالنجوم اللامعة، والعز والحمى والمعالى كلها صفات خلعها على ممدوحيه دون تفرقة أو خصوصية.

وقد اشتملت القصائد على مجازات لغوية وخيالات شعرية لكنها لم تكد تخرج عن المبالغات المعقولة فيما يمدح به بما يشيع فى أساليب الشعراء.

والفضائل أمهات ذات فروع، ولا بأس أن يمدح الشاعر بكل ما يتفرع من كل فضيلة .

واختلف الناس فى النظر إلى الشعر وانقسموا فى مذهبين : ناس يرون الغلو فى المعنى، وناس يرون الاقتصار على الحد الأوسط، بل إن بعضهم يستجيد الغلو فى شعر وينكره فى آخر، ويقول قدامة بن جعفر معلقاً على ذلك : "إن الغلو - عندى - أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما، وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم "[(١)]

لكن الغلو قد يصل إلى درجة ممتنعة كقول أبى نواس :

يا أمينَ اللـه عِشْ أبَداً

دُمْ على الأيام والزَّمَنِ

يقول قدامة : ونحن نقول : إن هذا وما أشبهه ليس غلوا، ولا إفراطاً، بل خروجاً عن حيز الغلو الذى يجوز أن يقع إلى حد الممتنع الذى لا يجوز أن يقع، لأن الغلو إنما هو تجاوز فى نعت ما للشئ أن يكون عليه، وليس خروجاً عن طباعه إلى مالا يجوز أن يقع له [(٢)]

وفى وصف الجيوش وآلات القتال كان ابن خلدون مثل غيره من شعراء المشرق أو المغرب، لكن المذهب الذى يذهب إليه هو مذهب المحافظين المجددين لأنه يجدد فى البيان وإعداد الصور فالقنا والسيوف والرماح والأسود الذين يمسكون بها أمور معروفة فى البيئة العربية، ولكن ابن خلدون جرى مجرى غيره من نابهى الشعراء، كالمتنبى وأبى تمام وغيرهما فى إضفاء الحركة والإدراك، والفكر على هذه المشاهد المألوفة لتصبح مشاهد جديدة التكوين والتأليف، فالقنا تؤنس المحاربين من القوم وتجعلهم فى راحة نفسية والسيف المصنوع فى الهند وأمثاله يمثل الصاحب الحقيقى لهم، فهو معهم يدافع عنهم ويتقى ضربات الأعداء، وهو الصاحب الذى لا يترك

---

(١) نقد الشعر ص ٢٦ .

(٢) نقد الشعر ص ١٣٢ .

صاحبه ساعة الشدة، ولا يفر وقت الطلب كما يفر الصاحب المنافق، وجيوش القوم الجرارة تحجب ضوء الشمس من كثرتها، وقوتها، وصورة إظلام النهار تعطى حيوية للكثرة التى لا يقدر عددها بحال، ثم هم مع كثرتهم ليسوا إلا مشرقى الوجوه سماح الطبع، فيهم نورانية لمن يهتدى إلى الحق، ويبعد عن الضلال، وقد صور ذلك بجعل الضلال ظلاماً، والحق كواكب مضيئة :

مِنَ القَوْمِ ما غيرُ القَنَا فِى طريقهم
أنيسٌ ولا غيرُ المهنَّد صَاحِبُ

إذا أظلَمَتْ جُنْحَ النهار جُمُوعهُم
أضَاءَتْ وُجُوهٌ منهم ومناقبُ

وإن ضَلَّ فى لَيْلِ الكفاحِ دليلُهم
هَدَتْهُمْ مِنَ العزْم الصميم كواكبُ

ويجعل الشاعر ابن خلدون النوادب تنوح على الأعاء تعبيراً عن هزيمتهم وكثرة قتلاهم :

والرمح الذى يصم صوته الآذان يسمع الأعداء ويملى عليهم ما يريد أصحابه، والسيف يسمع ما تتناجى به الجيوش ويؤدى دوره إجابة لما يصل إليه، وهى صورة بارعة :

بأيديهم سُمْرُ الرِّمَاحِ كما علَى
عواتقهم بيضُ السُّيوفِ القواضِبُ

فذاكَ أصمٌّ بلَّغَ الطَّعن للعدا
وهذا سميعٌ إن تنَاجَى الكتائبُ

ويجعل الشاعر ابن خلدون النوادب تنوح على الأعداء تعبيراً عن هزيمتهم وكثرة قتلاهم :

نَدبْتَـــهُـمُ لـله ثـم بعـثـتَـهُمْ

تُقَـامُ على الأعــداَء منهم نَوادبُ

والرماح - في رأى الشاعر وتصويره - شجرة مورقة تخضر وتزداد نضارة لكثرة ما تسقى من دماء الأعداء :

حـيَثْ الرِّمـاحُ يكـادُ يُورقُ عُـودُهَا

مِـمَّـا تُعَلُّ مِنَ الدِّمــاء وتنْـهَلُ

وهذا مما يكسب الصورة جدة وطرافة، فأين ميدان الحرب الحاصدة للبشر من ميدان حقول الزرع الباعثة على السعادة والابتهاج لكن المفاجأة فى المزج بين الحالين على نحو بديع، وهذا اللون من إضفاء الحركة على الجماد وأثر الحياة فيما لا حياة فيه يقع عند شعراء المشرق وعلى رأسهم المتنبى الذى يقول عن سيوف سيف الدولة :

ولىَّ صـوَارِمَـهُ إكْـذَابَ قـولهـمُ

فَـهُنَّ ألسِنَةٌ أفـواهـهـا القِـمَـمُ

نوَاطِقٌ مُـخبرات فى جـمـاجـمـهمْ

عَنْـهُ بما جـهـلوا مِنْهُ ومـا علمـوا (١)

ويقول عن أعنة الخيل وعزيمة الفرسان :

تجـاذِبُ فُـرسْـانَ الصـبـاح أعنَّةٌ

كَـأَنَّ عَلَى الأعنَاقِ منهـا أفَاعـياَ

---

(١) ديوان المتنبى ٢/ ٢٦٠.

بِعَـزم يسيـر الجسْمُ فى السَّـرج رَاكبـاً

به ويَسـيـرُ القلبُ فى الجـسم مـا شيًـا [1]

ويختار وصف الخيل المحاربة بأنها الجرد السلاهب [2] ويصف الرماح بالعسل جمع عاسل [3] وهى ألفاظ جزلة منتقاة ملائمة لمجال الإعداد الجيد للعتاد الحربى وآلاته ووسائله .

ويصف الجيش بأنه كالجن لكى يتخيل السامع والقارئ فظاعة حاله وأنه على صورة لا تعلمها النفس على حقيقتها ويذهب فيها الفكر مذاهبه فى الغضب والشر والبطش وإذا ذكر العربى طرفا للصورة غير مرئى زادها إبهاما يشد القارئ ويستولى عليه مثل ما قال امرؤ القيس ،

أيقْـتُلـنِى والمَشْـرَفىُّ مُـضـاجِـعِى

ومَـسنونـةٌ زُرْقٌ كـأنيـابِ أغْـوالِ

ثم إن الشاعر يجعل جيش الممدوح لايشرب ماء وإنما يتعاطى خيال الماء وهو السراب ، وهو لا يطلب رزقا غير الرماح التى تسد حاجته فى هذا المقام الذى يتفرغ فيه العسكر لطلب العدو فى قائظة النهار لا يهدأ لهم بال ولا يهنأ لهم شراب أو طعام إلا بتحقيق هدفهم فى النصر والتصوير فى قناعتهم بالسراب شراباً وبالرمح رزقا مما لا يخفى بهاؤه وجدته :

جِنٌّ شَـرابهُمُ السَّـراب ورِزْقُـهُمْ

رُمْحٌ يَـرُوحُ بـه الكَـميُّ ومُـنـصـلُ

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٩٧ .

(٢) السلهب : الطويل العظيم من الخيل

(٣) اللدن : المضطرب

ويقول المتنبى عن الأكل من الريح والشرب من السراب :

وخَيْلاً تغتَذِي ريحَ المَوامى
ويكْفيهَا مِنَ الماء السَّرابُ [1]

وتصوير خروج الجيش فى وقت الهجير بأن الهجير يمد يديه مصافحاً له، وأنه لا يلجأ إلى الظل والراحة ويكتفى بظلال الرايات الحربية أمر ينفذ معناه إلى الفكر بما يكشف عن الجدية والاضطلاع بالمسئولية وعدم التوانى فى أمن الأمة وسلامتها وتحمل المشاق فى سبيلها ولو أدى ذلك إلى ترك النعيم والرفاهية واللجوء إلى الكفاح والمخاشنة :

طوْراً يُصَافِحُكَ الهَجيرُ وتَارَةً
فيه بِخَفَّاقِ البنُود تُظَلَّلُ

وهو – فى نظر الشاعر – يشق حشا الصحراء تصويراً لقطعها وسرعة السير فيها، وكأنها مخلوق حى تناوله بالفتح والقطع (تفرى حشاَ البيداء) .

وهو – فى مرأى التصوير الشعرى عند ابن خلدون – فى قيادته للكتائب المدججة بالسلاح وتمكنه منها ومظهره المعجب للعيون إنسان يلبس الرماح التى تستره وتخفيه وتمنع عنه الأذى، والكتائب وراءه كالذيل الذى يجر لمن يرتدى الثياب الطويلة، وهى فى فخامتها وأناقتها كأثواب العز القشيبة المزينة لصاحبها، وبهذا اكتسبت جمالاً وبهاء، ونقلت الحال من خيب الكتائب وكثرة سلاحها الساتر لها إلى حياة العز والنعمة الرافلة :

وتَجُرُّ أذيالَ الكتائب فَوْقَها
تَختَال فى السُّمْر الطِّوَالِ وترفُلُ

---

(١) ديوان المتنبى ٢/ ٢٠٠ .

والسيفِ فى اهتزازه غُصنٌ متثن أو شط متهدّل :

وبكـلِّ أسْـمَـرَ غُـصْنُه مُـتَـأوِّدٌ

وبكـلِّ أبيَضَ شطُّـهُ مـتَـهـدِّل

وإن الممدوح أخضع بهذا الجيش من حفزهم إلى العصيان غى جاد هازل ، ونسبة الجد والهزل إلى الغواية تجسيم لها وتحريك ، وجعلها أمام العيون فى منظر ينفر منه الناس وكيف يسمح أصحابها لها بهذا االانتقال من الجد إلى الهزل والعبث وكأنها هى المطلوبة للجيش لردها إلى صوابها وهذا من خيال الشاعر وتصرفه فى الصورة :

ونَزَعْتَ مِنْ أهْلِ الجَـريد غَـوَايَةً

كـانت بِـهم أبَداً تَـجِـدُّ وتَهْـزِلُ

وهذا من توليد المعانى واختراعها[1] ونقل المعنى والنسبة إلى غير صاحبها على طراز ما يسمى بالمجاز العقلى ، وهذا يبين الفرق بين الدلالة اللغوية ، والدلالة الفنية ، وهذا يعطى ملامح للصورة المفزعة ، وهى صورة من غوى وضل وحاد عن القصد .

وتصوير العزيمة بأنها تجرى كما يجرى الماء السلسل صورة منحها الشاعر من بنائه اللغوى والمعنوى حتى جمعت بين الأشياء المتاعدة :

بشكيـمـةٍ مَـرْهُوبـةٍ وسـيـاسـةٍ

تَجْـرى كـمـا يجْـرى فـراتٌ سَلْسَلُ

وقد لجأ الشاعر ابن خلدون أحياناً إلى المعانى والأقيسة المنطقية ، وذلك أيضا جانب من المعانى التى يطرقها الشعراء ، وهو أسلوب يحاول به الشاعر إقناع سامعيه

---

(١) العمدة ١/ ٧٤.

بأفكاره التى يريدها، وفى الأسلوب المنطقى حسن تعليل مصدره العمق فى التفكير إذ يجعل السامع مقتنعاً بفكره، قال ابن خلدون :

قَـــايِسْ قَــــديماً مِنكُــمُ بقـــديمِهمْ

فَــالأمْــرُ فــيــــه وَاضحٌ لا يُجْــهــلُ

واسْـــأل بأنْدلُــسٍ مَــدَائِن ملكهـــا

تُخْـبركَ حِين اسـتياً سـوا واسْتَـوهَلُوا

وقد جرت العادة - عند شعراء المشرق - بوصف الرحلات والانتقال بالقوافل ومشاق الرحلة .

وعادة ما يصف الشاعر عناء الرحلة فى الوصول إلى الممدوح أو فى الارتحال عن الأهل والوطن .

وابن خلدون - فى قصائده الأولى - قد ينقل الصورة إلى مجال بعيد فقد ربط بين غناء حداة الإبل وترتيل الراهب للإنجيل :

وسِـــرْنـاً وترجــيعُ الحُـــداة يحـــثناً

كمـا رَجَّع الإنجيلَ فى الصُّـبح رَاهبُ

ويعطى الشاعر صورة أثر خطو الإبل وسيرها فى الصحراء متجهة إلى الممدوح بأنها أسطر كتبت فى صحيفة فزينتها، وهو يوضح تعدد آثار أخفاف الجمال السائرة فى الصحراء، وهذه الصورة تجمع عناصر البداوة وعناصر الحضارة، ولربما أشبهت فى جمعها الأطراف المتباعدة قول القائل عن ولد الظبية :

تُـزجى أغَـنَّ كــــأن إبـرة روقـــــه

قلـمٌ أصـــابَ مـن الدَّواة مِـــدَادَهَا

ثم يعد الشاعر نفسه وهو ينتقل من مكان إلى آخر فى هذه الصحارى العربية المترامية الأطراف ويضل فيها السالك بأنه يبدو لقيطا لا يعرف نسبه إلى مكان معين، ويخاطب الأماكن والبقاع فتجيبه بأن لقياك بأهلك عن قريب وبمن تنوى الذهاب إليهم ستتبين طريقهم، وتعرف وجهة الصواب التى تنشدها عنهم.

وصورة الرحل وهو يقيم فى مكان الممدوح فى أوج العلياء وعند من وجد ما كانت تصبو إليه بعد رحلة طوف فيها وعاد:

رَقَمْتَ بهـا فى صَفْحة البيد أسْطُراً

كما زان رَقْماً فى الصحيفة كاتبُ

كَأنِّى لقيطٌ والبلادُ تُجيبُنى

خواطرُ منها للمعَانى صَوائبُ

إلى أنْ حَططتُ الرَّحل فى شُرفَة العُلاَ

لدىَ بَابِكَ الأعلىّ كما حَط آيبُ

وأية صورة تمثل الصحراء وأهوالها وأصوات الهمس والرياح والحركة فيها، ومظهر البيوت وأطلالها تشبه الأصوات المنبعثة منها عزيف الجن وزمزمتها، فى هذا الفضاء الذى لم تترك يد البلى أى شىء فيه إلا غيرته:

وبَيْداءَ قفرٍ غيَّرتْهاَ يدُ البلى

وأزْرَتْ بمغنَاها الصَّبا والجنائبُ

بِهاَ لعزِيف الجنِّ أىُّ تَراجعٍ

وبَيْنَ الرِّياح الهُوج فيهاَ تلاعُبُ

ثم يصف السائرين فى الصحراء متنقلين من مكان منخفض إلى آخر مرتفع، وكأنهم - حال المشى - يجدون ما يرفعهم وما يخفضهم، وما يقلبهم على شتى الأنحاء، وهى لوحة يمكن رسمها بالأشكال، والظلال إلا أنها تمتلىء بالحركة وتموج بالانفعال، وهذا هو الذى يميز الصورة الشعرية عن صور الرسم الطبيعية التى تخطها، وتترسمها يد فنان لأن الثانية جامدة لا حركة فيها، لكن كيف والفرق واضح فى محرك يتسلط على السائرين فيوجههم - كما يريد - وكأنهم لعب أو دمى فى يديه يحركها هذا المستتر عن العيون أو لا يبدو منه إلا حركتهم، وسيرهم، والسائرون يبدون كأنهم صور، وخيالات تتحرك، طوراً هنا وطوراً هناك، وتبرق صورهم، وأسودتهم ثم تختفى كما تسل حساما من غمده، وتعيده أطوارا وأطواراً:

وافَـوْكَ أنْضَـاءً تُـقلِّبُـهـمْ
أيدِى الـسُّـرَى بالغَـوْرِ والنَّجْـدِ
كـالطَّـيفِ يَسْـتَـقـرِى مَـضَاجِـعَـهُ
أو كـالحُـسَـامِ يُسَلُّ مِنْ غِـمْـدِ

ويصور الفلاة بالبحر فى ترامى أطرافه، ومهابته، لا سيما فى الليل البهيم، والسائر فيه كالسائر فى البحر اللجىّ :

ولقَـدْ أقُـولُ لخَـائِضٍ بَحْـرَ الفَـلاَ
واللَّـيـلُ مُـزْبَدُّ الجَـوَانِب ألْيَـلُ

ويصور الجمال وقد نحل سنامها، وهزلت من كثرة المسير بأن البلى عمل فيها عمله، وأوهنها وهناً شديداً :

وَخَـزَ البلَى مِنهـاَ الغَـوَارِبَ والذُّراَ

فَلَفَـتْنَ خُـزْراً بِالعُـيُـونِ الشُّـوسِ

وحاول الشاعر ابن خلدون أن يصور قصراً بناه ابن الأحمر على أنه على الدهر لا يصاب بسوء وأنه أعظم من إيوان كسرى لكن الصورة تبدو باهتة إذا قيست بمقدرة الوصف التى برع فيها البحترى حينما وصف إيوان كسرى الذى دخله :

لـيسَ يُـدْرَى أصُنْـع إنُسٍ لجـنٍّ

سـكَنـوُه أو صُنْـعُ جِنٍّ لإنـس

يقول ابن خلدون :

ياَ مُصنَعاً شُيِّدَتْ مِنه السُّعُودُ حِمىً

لاَ يَطرقُ الدَّهْرُ مَـبْنَاهُ بِتَـوْهِينِ

بُعْداً لإِيـوَانِ كسْرى إن مَشْوَرَكَ

السَّـامِى لأعـظمُ مِنْ تلـك الأواوِين

وقد سلك الشاعر - وهو فى أوج تفوقه الشعرى - مسلك الجدة، والطرافة فى المعانى، واختار أعذب الألفاظ، وأصح التراكيب، وهو يجعل مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم مجالاً لشعره ومادة له.

والمدائح النبوية من بين فنون الشعر التى أذاعها التصوف فهى لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص [(١)]

(١) المدائح النبوية لزكى مبارك • مطبوعات الشعب ص ١٤٧ .

وتعد المدائح النبوية امتداداً لفن المديح فى الشعر العربى وتمتاز بصفة عامة بصدق العاطفة وحرارة الشعور وسعة التناول [١] .

ومحور المدائح النبوية يدور حول إرسال نبى الأمم كلها محمد رسول الله إلى الناس كافة، وبيان أخلاقه ومعجزاته، وبيان مشاعر الشاعر نحو المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونشر دينه وشريعته وما ينال النبى صلى الله عليه وسلم من منزلة عظمى يوم الدين كالشفاعة، كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد بنى آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع " [٢]

وقد قيل عن خلقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ .

وحديث ابن خلدون فى المدائح النبوية حديث يبدو أثره فى إحدى قصائده التى خاطب فيها ركب المسافرين وطلب منهم تبليغ أشجانه للمصطفى صلى الله عليه وسلم ولم يذكر فيها الجزء الخاص بمعجزاته صلى الله عليه وسلم، ويبدو فى تصويره راكب الناقة والهواء يحرك بعض ملابسه برياح الشرق والجنوب، وكأنهما تتجاذبان ثيابه، وكل منهما تحاول التغلب على نفوذ الأخرى، ولكنه يحس بنفح العطر المحمدى فيها، وأن الركب تهدىء دموعه من لوعته، وشوقه إلى المحبوب، ويستغنى عن الماء بغزير الدموع المنهمرة التى ينهلون منها ما يروى ظمأهم وشجنهم فى آن واحد، وصوّرهم وهم يسيرون فى الظلمات بأن معهم ما ينير ظلام الوجود وهو نار الشوق المضطرم فى القلب وحنايا الصدور :

مُتَـهـافِتـاً عن رَحْلِ كُلِّ مُـذَلَّـلٍ
نَشْـــوانَ مِـن أيْنٍ ومَـسِّ لُغُــوبِ

تتجَاذَبُ النفحَـاتُ فَضْلَ رِدَائـه
فى مُلْتَـقَـاهَا مِنْ صَـبـاً وجَنُـوبِ

---

(١) دراسات فى التصوف الاسلامى د. محمد عبد المنعم خفاجى . دار الطباعة المحمدية ٢/ ٤٩، ١٠٦ .
(٢) السنن الكبرى للبيهقى ط دار المعرفة - بيروت ٩/ ٤ .

إنْ هَامَ مِنْ ظمـأ الصَّبَابَة صَـحبُـه

نَهلـواُ بمَـوْرِدِ دَمْـعِـهِ المسكُـوبِ

أو تَعْـتـرِضْ مَسْـراهُمُ سُـدفُ الدُّجَى

صَـدعُـوا الدُّجَى بـغَـرامِـهِ المشْبُـوبِ

ثم يشير إلى ظهور معجزاته صلى الله عليه وسلم بادية بأنوارها على المدينة المنورة وكأنها عروس مجلوة ناطقة بصدق رسالته صلى الله عليه وسلم :

حَـيـثُ النُّبُـوةُ آيُـهَـا مَـجْلُوَّةٌ

تَـتْـلُو مِـنَ الآثـارِ كُـلَّ غَـريـبِ

ثم إن ذكـر الرسـول صلى الله عليـه وسـلم عطر له أريج ينعش النفـوس الصادقـة الإيمان .

وهكـذا يعطى الشـاعـر صـوراً لهـا لون رائع وطعم لـذيذ فكمـا ترى العين تشم الأنف، ويصل البلسم الشافى إلى القلوب فيبعث فيها الأمل والرجاء .

ويشير فى إجمال إلى ثناء القرآن على أخلاقه صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله تعالى : ﴿ وإنكَ لعلَى خُلقٍ عَظِيم ﴾ (١) :

قَـصَّـرْتُ فِى مَـدْحِي فـإنْ يَكُ طَيِّـباً

فَـبِـمَـا لِذِكْـركَ مِنْ أريجِ الـطِّيبِ

مَـاذَا عَـسَى يَبْـغِي المُطيلُ وقَـد حَـوَى

فِى مَـدْحِكَ القُـرآنُ كُلَّ مَطيبِ

---

(١) القلم ٠ الآية ٤ .

وقد جعل الفوز بالزيارة المحمدية يدنو منه بحسب أمنيته، ورجا حط أوزاره التى تمثل حملاً ثقيلاً كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾[1]، وقوله عز حكمه : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[2] .

يا هَلْ تُبلِّغُنِى اللَّيالِي زَوْرَةً
تدنِى إلىَّ الفَوْزَ بالمرْغُوبِ
أَمْحُو خَطِيئَاتِي بِإخْلاَصِى بِها
وأَحُطُّ أوزَارِى وإصْرِ ذُنُوبِى

واختيار المحو والحط والإصر من المناسب للمعانى التى أرادها الشاعر، وهى من المجال الإسلامى ولكل مقام مقال كما يقول البلاغيون .

وهو يصور رحلة مسافرة لزيارته صلى الله عليه وسلم وينتظم هو فى سلكها فيصورهم بترك رغائب الدنيا وملذاتها، وملازمتهم للرواحل التى توصلهم إليه صلى الله عليه وسلم، وجعل الحادى للإبل يغنى مترنماً والركب يردد كتغريد الطائر، وهذا التصوير ينبىء عن سعادة ورضا (رنم الحادى) (غرد الركب)، وصورة الركب فى غناء متردد بين البادىء والتابع صورة مألوفة فى أصحاب الآمال المتحققة والأفراح السائدة المرغوب فيها إلى جانب الصورة الحقيقية للراكبين :

إنْ رنَّم الحَادِي بذكْرِكَ رَدَّدوا
أنفاس مُشْتَاقٍ إليكَ طَرُوبِ
أو غَرَّدَ الركْبُ الخَلِيُّ بطيْبَة
حَنُّوا لمغْنَاهَا حَنِينَ النِّيبِ

وما أجمل صورة الحنين، من الإنسان حين يشارك الإبل حنينها، ومشيها وقطعها المسافات فى أمل للوصول إلى أهدافها .

---

(١) العنكبوت : الآية ١٣ .

(٢) فاطر . الآية ١٨ .

ويناجي الأحبة متشوقاً معبراً عما يخالج نفسه من حضور المحبوب، ومتخيلاً حديثه معه، وهي صورة تتردد عند أصحاب الشوق الذين يتملكهم شعور الهوى، ويستشرى في دمائهم ويستولي على فكرهم :

يَا نَازِحًا والمُنَى تُدْنيه مِنْ خَلَدي

حتَّى لأَحْسَبُه قُرباً يُنَاجِيني

ويستخدم الطباق بين النسيان وعدمه مفرقاً بين المحب والمحبوب في قوله :

تُرى اللَّيالِي أنسَتْكَ ادِّكَارِيَ يَا

مَنْ لمْ تَكُنْ ذكْرَه الأيامُ تُنْسِيني

وفي التهاني التي يشتمل عليها شعره صور متنوعة مما نسميه الاتجاه المحافظ الجديد فهو يدعو للعصر الذي يعيش فيه الوزير المهنأ بالسقيا وأن الممدوح مهم للأمل في هذا العصر وسعادته وحضارته، لأنه عنصر أساسي فيه كالعين بالنسبة للإنسان فهو لا يبصر إلا بها، ولا يؤدي دوره إلا بصحتها وسلامتها، ويدعو للمكان الذي يعيش فيه الممدوح بالنضرة والجمال، والازدهار، وأن يبعد عنه الجدب، وعبر عن اختفاء عامل الجدب بالمس فأعطى للمحول حركة الاقتراب والحس، وجعل حياته مواسم مشرقة مضيئة، وأخذ الصورة من الحديث : ﴿تبعثُ أمتي غُراً محجلين من آثار الوضُوء﴾، وكالخيل التي لها غرة وتحجيل، مما يدل على نضارتها، وجمالها، وجعله مهداً للآمال يأتي إليه القاصدون وهو كالماء الجاري يلتف حوله من يريد النهل من الناس من أهله ومن غير أهله :

سقى الله دَهْراً أَنْتَ إنسَانُ عَيْنِه

ولا مَسَّ رَبْعاً فِي حِمَاكَ مُحُولُ

فعَصْرُكَ مَا بَيْنَ اللَّيالِي مَوَاسمٌ

لهَا غُرَرٌ وضَّاحَةٌ وَحُجُولُ

وَجَانِبُكَ المأمُولُ للجودِ مَشْرَعٌ
يَحُومُ عَلَيهِ عَالِمٌ وَجَهُولُ

ويجعل ولد السلطان وهويقدم مستجيبا للختان دون تردد كالسيف يمضى فى الحرب إلى هدفه، والصورة غير ملائمة لما قيلت فيه، فموضوع الختان لا يحتاج إلى شجاعة أو إقدام وإن لمح الشاعر الصورة االظاهرية للمختون والسيف المخضب بالدم، وهذا فى قوله :

وراَح كمَا راَحَ الحُسَام مِنَ الوغَى
تَروقُ حُلاهُ والفِرِنْدُ خَضِيبُ

وحين هنأ سلطان تونس بالشفاء جعل الدهر يضحك بعد أن كان عابساً فى قوله :

(ضحكتْ وُجُوه الدَّهرَ بَعْد عُبُوس) وهى صورة متداولة ومألوفة بين الشعراء فى المشرقَ، وإن كانت تخلع على الدهر صورة إنسان، وصور البشائر وهى تمحق ليل الهم وتحل محله الضياء كأنها جذوة من النار تضىء وسط الظلام، والناس بعد موت آمالهم عادت لهم حية من جديد فبعثتهم كما يقوم الميت من قبره :

صَدَعُوا بِهَا لَيْلَ الهُمُوم كَأنَّما
صَدَعُوا الظَّلامَ بجذْوةِ المقْبُوسِ
فَكَأنَّهُمْ بثُّوا حَيَاةً فى الورَى
نُشِرتْ لها الآمالُ مِنْ مَرمُوسِ

والصورة الأولى مأخوذة من بيئة العرب، وإيقاد النار ليلاً ليهتدى بها السارون فى جنح الليل أمر معروف لساكنى البيداء، وبعث الموتى من قبورهم أمر معروف فى الدين فاستمد منها مصداقية الصورة وإيحاءها الشعرى .

ونقل صورة الفرح، والنشوة وكأنها نشوة شاربى الخمر، وهذا معنى مطروق .

وموضوع الشكوى والاستعطاف يزخر بعواطف جياشة للشاعر وتجارب مريرة أثرت فيه، ولذلك نجد شعره فى هذا الجانب سلس العبارة، قوى التأثير، ذا صور خلابة مؤثرة، فهو يصور الليالى وهى تحس به ويحس بها ويعاتبها على ما فعلت به وهى تنازعه حياته وهو يحاول أن يستردها منها يقول:

عَلَى أيِّ حَالٍ لِلَّيَالِى أُعَاتِبُ
وأىّ صُروف للزّمانِ أُغالبُ

وهو فى هذا متأثراً بالمتنبى فى مثل قوله:

لِأَيِ صرُوفِ الدَّهْرِ فيه نُعاتِبُ
وأى رَزَايَاهُ بِوِتْرٍ نُطَالِبُ[1]

ويصف نفسه بأنه القريب البعيد والحاضر الغائب، وذلك مما يبعث على أن يعيش القارىء والسامع معه فى الحضور بالجسم، والغيبة بالتفكير، والتصور، وهو مودع فى السجن ويصور الأحداث التى وقعت له وكأنها قضاة أصدرت حكماً عليه أو أنها جيوش، وهو معها فى سلم مرة وفى حرب أخرى . . . يقول:

كَفَى حَزَناً أَنّى علَى القُربِ نَازحٌ
وأَنّى علَى دَعْوى شهُودِي غَائِبُ
وَأَنّى عَلَى حُكْمِ الحَوَادِثِ نَازِلٌ
تُسَالِمُنِى طَوْراً وَطَوْراً تُحَارِبُ

وهنا تسلس الألفاظ وتنقاد، ويصور الهموم التى تعتريه من جراء فقده ما كان فيه

(١) ديوان المتنبى ١/ ١٩٣، وانظر أيضاً ٢/ ١١.

من نعمة بأنها كصديق المحب تجود عليه وهو يعاتبها :

أَبِيتُ تُناجِينى الهـمُـوم كـأَنَّنى

صـديق عَصَى فِى الحُبِّ وَهى تُعـاتِبُ

ثم إن الفكر ملازم له، يذهب به إلى حدود بعيدة فى الألم النفسى، وكأنه مركب ينقله من مكان إلى مكان، وهو تصوير جيد جديد :

وقـدْ أمتَطِى فِكْرى لَدَى اللَّيْلِ مَـرْكَبـاً

مِنَ الكرْب تحـدونِى إليـه الرَّكـائِب

ثم يدافع عن نفسه مبيناً عدم صدق الوشاةمكنياً عن الجريمة التى لم يرتكبها مستفهماً بما يوضح رميه بها كذباً وبهتاناً فيقول :

وهَبْـهُمْ رَمَـونِى بـالتَّى لسْتُ أهْلَهَـا

ألَيْس انْـتِسَـابِى واضحٌ مُـتَـنَاسِبُ

وإن كنت لا أرتضى أسلوبه فى الشطر الثانى إذ إنه أكمل الشطر بكلمة (متناسب) ولا معنى لها هنا .

ويجعل أيادى من يستعطفه عليه كثيرة محسة كالحمل الذى يحمله الإنسان على ظهره وقد أبعده الحاسدون عن ورده ليستقلوا به . . . يقول :

وأصْـدَرَنِي عَنْ وِرْد نُعْـمـاكَ نَاهِلٌ

وَقَـد أثْقَلتْ ظَهْـرِى لَديْـكَ المَوَاهِبُ

ويصف بعده عن أهله بأن الأماكن قد أخفته تحت ستارها أو بأن طيوراً جارحة قد اختطفته أو أوردته المهالك وأكلته :

توارت بأنبـائى البـقـاع كـأننى

تُخُطِّفْت أو غـالت ركـابى غُـولُ

وهو يقتبس هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (١)

ويخاطب وطنه كأنه إنسان يبادله الحب، والحديث، ويصور أثر ذلك عليه كأن شيئاً طار به من مكانه إلى مكان المحبوب فى ألم، وبكاء :

ذَكَـرتُكَ يَـا مَـغْنَى الأَحِبَّـةِ والهَـوَى

وطـاَرتْ بِـقلبـى أنَـةٌ وَعَــــويـلُ

وصور المعالى وهى لا تريد أن تبقى معه ولم تعطه قيادها فيما يريد وكأنها إنسان أو حيوان عصىّ القياد :

إلامَ مُـقَـامِى حَـيْثُ لـم تُرد العُـلاَ

مُــرادِى ولم تُعـط القـيَـادَ ذَلُولُ

وصور الجذب والشد بين الشاعر وبين الأمانى واضحة تجعله بين اليأس والرجاء، ويصف الزمان بالبخل والآمال بالخداع والمماطلة، وأن للزمان جيوشاً تناوشه وتوقع بكبده العذاب، وكأن لها سيوفاً تمزقه وتنتصر عليه، وهى صورة نفسية بارعة بين آماله التى يرجوها، وأحلامه الضائعة، وهو يريد أن يخرج منها بالرحيل تخلصاً مما هو فيه، وهى صورة مركبة من عناصر كثيرة من الصور الخلابة فى هذا الشعر، وكل لفظة تشارك فى رسم الصورة وكل جزئية تشارك فى رسم الخيال البديع الذى يعد من نوع الخيال الابتكارى، ويقول النقاد : إن الشاعر يمزج رؤى عالمه النفسى بخياله، ويبثها فى صوره الشعرية بحيث تصبح الصورة الشعرية منتمية بالضرورة إلى عالم الفكر والوجدان، أى الفكرة الممتزجة بعاطفة الشاعر والمعبرة عما يجول فى نفسه من خواطر، وما يثور فى أعماقه من مشاعر، ولهذا تعد الصورة فى الشعر الرومانسى تجسيداً للحظات شعورية مرت بها نفس الشاعر، واهتز لها وجدانه (٢).

---

(١) الحج ٠ الآية٣١.

(٢) الرؤية الرومانسية للمصير الإنسانى لدى الشاعر العربى الحديث ٠ طلعت عبد العزيز أبو العزم ص ٣٢٨، ٣٢٩، وانظر البحث ص٩٩.

ويقتبس الشاعر بعض الآيات القرآنية ويضمنها شعره مثل قوله :

يُرَوِّعُنِي مِنْ صرفـها كُلُّ حَـادث
تَـكادُ لَـهُ صُمُّ الجِـبـال تَـزُولُ

وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ [1] .

ويكرر صورة الأيام وهى تنازله بأحداثها وتتغلب عليه قائلاً :

وإنِّى وإنْ أصْبحتُ فى دَار غُربَة
تُحِيلُ اللَّيالى سَلوتِى وتُديلُ
لأَعْلَمُ أنَّ الخَيرَ والشَّر يَنْتَهى
مَداهُ وأنَّ الله سوفَ يُديلُ

وهو بهذا يؤمن بأن النصر من عند الله .

ويصف الظنون بالجمال، وهو يخاطب الجوبانى فى مصر كما يصف الأيادى التى تعبر عن النّعم بالجمال أيضاً ويصف الرأى بالجمال كذلك . . . فيقول :

سَيِّدِى والظنُونُ فِيكَ جَمِيلةْ
وَأياديكَ بالأمانِى كَفيلةْ
لا تَحُلْ عَنْ جميل رأيكَ إنِّى
مَالىَ اليَومَ غيرُ رأيكَ حِيلةْ
لا تُضِعْنى فلسْتُ منكَ مُضيعاً
ذِمَّةَ الحُبِّ والأيَادى الجَميلَةْ

---

(١) إبراهيم ٠ الآية ٤٦ .

وإن عهد هذا فى الأيادى فإنه لا يعهد فى الظن إلا إذا كان يقصد الظن الحسن فى مقابل الظن السيء، وإنما يوصف به الصبر مثل قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾[1] .

ويصور أمر السلطان بأن الله تعالى كفل له أمور دنياه تعبيراً عن معونته له، ورعايته فى كل أحواله :

أنـهِ أمْـرِى إلى الـذّى جَـعَـل

اللـه أُمـورَ الدُّنْـيـا لـهُ مَكْفُـولَةْ

واقتبس فى البيت الذى يليه ما عبر به عن إفراده بعظمة الملك، وعجائبه، وهو قوله :

وَأَراهُ فِـى مُـلْـكِـه الآيَـةَ

الكُبْـرىَ فـولاَّهُ ثُـمَّ كَـان مُـديلَهْ

فصدر البيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾[2]، وأسند فقد أولاده إلى الزمان، وهو إسناد إلى غير صاحب الفعل لأن الفاعل هو الله، يقول :

غـالَـهُ الَّـدهْرُ فـى الـبـنين وفـى

الأهل ومـا كـان ظَـنّهُ أن يغـولَهْ

وهو من الإسناد المجازى، ويصور إيقاع أعدائه به بالشراك التى ينصبها الصائد ليوقع صيده فيها :

روَّجُـوا فِى شـأْنِى غَـرائب زُور

نصـبُـوهاَ لأمـرِهِم أُخْـبُـولَة

---

(١) المعارج ٠ الآية ٥.

(٢) سورة النجم ٠ الآية ٨١.

ويستعمل الحجاج العقلى فى رد المزاعم التى وجهت إليه، وظن السوء الذى أوقعوه فيه وهو بادى الخطأ وليس له وجه من الصواب . . . يقول :

وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَاكَ عَلَى مَا
أَضْمَرُوا مِنْ شَنَاعَةٍ أو رَذِيلَةْ
وَهْوَ ظَنٌّ عَنِ الصَّوابِ بَعِيدٌ
وظَلامٌ لَم يُحْسِنُوا تَأوِيلَهْ

ويقول النقاد : (ينبغى ألا يخضع الشاعر للقوى العقلية وحدها، فإن قصيدته حينئذ تفقد الأساس الذى ينبغى أن يقوم عليه أساس العاطفة، والمشاعر الوجدانية، إنه ليس بصدد عمل عقلى، وإنما هو بصدد عمل نفسى لغته الشعر، أما العقل الخالص فلغته النثر، ولغة الشعر تعالج مشكلة غاية فى التعقيد، مشكلة معرفتنا بالكون والحياة النفسية) [1] ومع ذلك فإن الأسلوب المنطقى أحياناً يكون وسيلة إلى إقناع الشاعر لمن يسمعه بالفكرة التى يريدها، وقد يكون فى الأسلوب المنطقى حسن تعليل يحمل السامع على الاقتناع، ولكن للعاطفة دورها فى إذكاء الشعور، والعواطف النبيلة، ثم يصور فقده لوظائفه بأنه جدب ومحول تعبيراً عن عيشه الذى أصبح من شظف العيش بعد حياة النعيم فيقول : (يشتكى جدب عيشه ومحوله) ويصور حياته بأنها أصبحت كالرسوم والأطلال البالية، ويطلب ممن يتوسط له أن يجددها ويوضح معالمها :

جَدِّدُوا عِنْدَهُ رُسُومَ رِضَاكُم
فرُسُومُ الكِرام غيرُ مُحِيلَةْ

وكأنه يجعل للرضا والكرم معالم قديمة بالنسبة للرضا وواضحة بالنسبة للكرم .

---

(١) فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف ص ١٤٨ .

وفى النسيب والتشبيب نراه محاكيا لشعراء المشرق، وغيرهم فى جعلهما فى أوائل قصائده كمطالع لها ويختار لهما الألفاظ السهلة المعتادة فى مثل هذا الغزل الرقيق، ويستخدم المحسنات البديعية مثل الطباق والجناس فى قوله :

غَربَتْ رَكَائِبُهُمْ وَدَمْعِي سَافِحٌ

فَشَرِقْتُ بَعْدَهُمُ بماءِ غُروبِ

ويقول :

يَلحى العَذُولُ فمَا أُعَنِّفُهُ

وأَقُولُ ضَلَّ فَأبتغِي رُشْدِي

وأُعَارِضُ النَّفَحَات أَسْأَلُهَا

بَرْدَ الجَوَى فتزَيد فى الوَقْدِ

ولهذا نظائر فى شعر المشارقة أن يقدموا بالمقدمات الغزلية والنسيب . . . يقول المتنبى ثائراً على ذلك :

إذَا كَانَ مَدْحٌ فالنَّسيبُ المقَدَّمُ

أكُلُّ فَصِيحٍ قَال شِعْراً مُتَيَّمُ (١)

وهو نفسه يبدأ قصائده فى المدح بالنسيب كأن يقول :

إلاَمَ طِمَاعِيَّةُ العَاذِلِ

ولا أرَى فى الحُبُّ للعَاقِلِ

(١) ديوان المتنبى ٢/ ٧٥.

يُرَادُ مِنَ القلبِ نسْيانكُمْ

وتأبَى الطِّباعُ عَلى النَّاقِلِ

وإنِّى لأعْشق مِنْ أجلكُمْ

نُحولى وكل امرئ ناَحِلِ

أيُنكرُ خَدِّى دُمُوعى وقَد

جَرَتْ مِنْهُ فِى مَسْلكِ سَابِلِ

وهَبْتُ السُّلُوَّ لمنْ لامَنى

وبِتُّ مِنْ الشوق فِى شاَغِلِ

ولوكُنْتُ فِى أمرِغيرِالهَوى

ضَمِنْتُ ضَمان أبى وائِلِ

وفى مدحه لسيف الدولة . . . يقول :

وكيف التذَاذِى بالأصَائل والضُّحى

إذَا لم يَعُدْ ذَاكَ النَّسِيمُ الذّى هبَّا

ذَكَرْتُ به وَصْلاً كأنْ لم أفُزْ بهِ

وعيشاً كأنى كنت أقطَعُه وثباَ

وفَتَّانَةِ العَيْنين قتَّالَة الهَوَى

إذَا نفحَتْ شيخاً روائحَها شَبَّا

لَهَـا بَشَـرُ الدُّرِّ الـذى قُلِّدَتْ بـه
ولـم أر بـدرا قـبلهـا قُلِّدَ الشُّهْبَا
فـيَا شَوْقُ مـا أبقَى ويـالِى مِنْ النَّوى
ويَا دَمْعُ مـا أجرى ويَا قَلبُ مـا أصبَى [1]

وقد خاطب الأطلال على عادة القدماء واقتبس منهم كما ذكرت من قبل [2]، وفى الحنين إلى الأهل يستخدم الشعر العذب والألفاظ السهلة أيضاً، ويكثر من المحسنات البديعية من مثل قوله :

حَيٍّ المعَـاهد كَـانَتْ قَـبلُ تُحَيِّـينى
بوَاكِـفِ الدَّمْع يُرْوِيـهَـا ويُظْمِـينى
أَمَـثِّلُ الربْـعِ مِنْ شَـوْقٍ فـألثِـمُـهُ
وكَـيْفَ والفِكْرُ يُدْنِيـهِ ويُقْـصِـينِى
مَـالِى وللطَّيفْ لا يَعْـتَـادُ زائِرُهُ
وللنَّـسِـيم عَلِيـلاً لا يُدَاوِينِـى

وتشتمل قصيدته الأولى فى كتابه التعريف التى قالها وهو فى السجن على صور محسوسة غالباً فتذكره بأهله الريح والبروق اللواعب، ودمعه أحمر قان كالعقيق فى عينيه، والقلوب تجرى فى الدموع السائلة كأنها البحر وقد غربت الشمس، وجاء الليل، ويستخدم فى ذلك الطى والنشر، وهو طباق فى قوله :

---

(١) ديوان المتنبى ٢/ ١١٠، ١١١ .

(٢) انظر حديثى عن النسيب والتشبيب ص ١٠٨ وما بعدها

وَقَدْ طُوِيَتْ شَمسُ الأصيلِ بأفْقِهاَ
كَما نُشِرَتْ للَّيلِ مِنْها غَيَاهِبُ

وهو يدعو لبلده بالسقيا، ويبين صبابته بها، فى عهد الشباب وقد لامس فيها التراب الترائب كناية عن أنها مسقط رأسه ومرتع شبابه، وأنه يبكى ولا تجاريه فى ذلك السحائب، وأن الشوق يتضرم، ويحرقه بالدموع اللواهب، وكل ذلك من مألوف البيئة العربية وأرى بذلك أن الخيال الذى جرى فيه الشاعر هو ما يسمونه الخيال البيانى أو التفسيرى الذى يتأتى للشاعر فيه أن يجعل الزهرة فتاة، والدمع عقيقاً، والبكاء غماماً، أو سحاباً، ونحو ذلك من الصور التى جلاها الشاعر، ويمكن أن يطلق عليه ما يسمى بالخيال الثانوى، وهو ما يعتمد فى تكوينه على صور منتزعة من المرئيات والآثار، والحوادث، ووصفها وصفاً يجمع بين خواصها الحسية المعروفة وبين مغزاها وأسرارها [1].

والصور المألوفة التى رأيناها فى بعض شعره يمكن أن تدخل تحت ما يسمى الخيال الأولى، وهو ما يخضع للتصور العام عند الناس ويعتمد على الحقائق المعروفة المسلم بها، وأحياناً كنت أجد عنده ما يدخل تحت الخيال الابتكارى، وقد أشرت إليه فى موضعه، واعتمدت أغلب الصور على ظاهرة التجسيم، والتمثيل الحسى، والتشخيص للمعنى النفسى أو غير النفسى، وتحريك المواد الجامدة، وخلع الحياةعلى مظاهر الكون كأن يذكر يد الأشواق التى قدحت زنده ويد الدهر التى لطمته، ونحو ذلك [2]، وارتبطت صوره الشعرية بالتجربة فالقيم الشعورية، والقيم التعبيرية كلتاهما واحدة لا انفصام لها فى العمل الأدبى، وليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية وليست الأهمية الشعورية إلا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره، وأن تنقله إلى مشاعر الآخرين [3]، وقد رأيت فى كلامه ما عبر عنه المحدثون بما يسمونه اللون، فكانت البهجة تعتريه أحياناً حين تصفو له الحياة،

---

(١) أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص ٢٤٠ .

(٢) النقد التحليلى لمحمد عنانى ص ٥٩ .

(٣) النقد الأدبى أصوله ومناهجه لسيد قطب ص ١٥ .

وكان القتام والبكاء يتراكم عليه حين تضيق به الحال، وكانت تبدو الصواعق، والرعود، والظلام بعد الضياء، والسكون والراحة مما يمثل لون الحياة التى يعيش فيها، وكان يعبر عما يذوقه من حلاوة طعم، أو مرارته فى كلا الحالين، وتحدث عن خواطره، وخلجاته فى صور مباشرة، وغير مباشرة واستطاع أن يصور لنا نفسه، وعواطفه، وأخرج لنا صورة من الحياة النابضة فى أحواله المختلفة ولا ريب أن القارىء لشعره يقع عليه تأثير، والتأثير الذى يقع من النص على القارىء والسامع يكتسب ما يسمى فى الأدب بالروعة والهزة .

أما عباراته التى تشتمل على الألفاظ المركبة فى النصوص فهى عبارات صحيحة فى العربية غالباً ويشترط النقاد فى أسلوب الأدب إلى جانب جزالة الألفاظ أن يكون الأسلوب صحيحاً من الناحية اللغوية، منسجم الجمل والتراكيب، بعيداً عن اضطراب النظم وسوء التأليف [1]، ولا تبدو هلهلة النسج فى قصائد ابن خلدون إلا فى القصيدة الأولى التى يبدو فيها ضعف الأسلوب أحياناً كأن يقول :

عَشِيَةَ بانُوا والقُلُوبُ جَوامِدٌ

وكانَ عَقِيقٌ فى النواظر ذائبُ

فالتعبير بكان وتقديم (فى النواظر) على (ذائب) مما يؤدى إلى أن الأسلوب غير مستساغ، ولا يحوز الإحكام التعبيرى، وكذلك قوله :

نُخَاطِبُ رَسْمَ الدَّارِ شَوقاً ومَالنَا

عَلَى القُرب إلا مِنْ صَدَاها مُجاوبُ

مَضَوا بى بنَجْوىَ السَيرِ إلا تَلفتاَ

كما التفتت بين الأراكِ الربائب

---

(١) الوساطة للجرجانى ص ٤١٣ .

فلا ريب أن الأسلوب فى البيتين مفكك، وفيه تقديم وتأخير وعدم إحكام صنعة أو صياغة لغوية، ولعل القصيدة كانت كما يقال من شعره بين التوسط والجودة إذ يشتمل مطلع القصيدة على روعة وإحكام نسق حين قال :

على أى حـــال للَّيـــالـىِ أعـــاتبُ

وأى صـــروف للـزمـــان أغـــالبُ

واستمر على ذلك عدة أبيات ثم انحدر مستوى التعبير وعاد مرات بين الإحكام وعـدمـه فى داخل هذه القـصـيـدة فلمـا وصل إلى الحنين إلى وطنه تونس أحـسن الأسلوب سبكا ونسجا حين قال :

رَعَى الله عَـــهْـداً ضَـمَّـــه أُفْق تُونس

ومَـــعْـــهَـــدُ أُنسٍ لَمْ تَرعْـــهُ النَّوائِبُ

ثم تنحدر الكلمات فى البيت الذى يليه إلى مستوى غير شعرى حين يقول :

وجـادَتْ عليـه الـغـانيـات بما حَـوَتْ

من العلم لا مـا تحـتـويه الَّسحَـائبُ

فاستعـمال (تحتويه) ليس له الذوق الأدبى الذى يعلو إلى الجزالة فى التـعـبـير واختيار الألفاظ ولكنه يعلو حين يقول :

يُذكِّـــرنى عَـهْـدُ الـرِّضـا فى جنَابِـهـا

أَمَـــانٍ تـقــضَّتْ لِـى بهـــا وَمَـــآرِبُ

ثم يعود الى القلق اللفظى، وعدم وضوح التعبير فى قوله :

ويُقْلِقُنى شَوقٌ تَضَرَّمَ بالحَشاَ

فيُحرِقُنى لولاَ الُّدمُوعُ لَوَاهِبُ

فلفظ (يُقلقُني) هنا ناب عن موضعه ، فكان يمكن أن يضع مكانه (يحرقنى) فيقول : ويحرقنى شوق تضرم بالحشا

ولا مجال لقوله : (لولا الدموع لواهب) ولو جعل الدموع مطفئة لنار الشوق لكان أفضل ، أما قصائده الأخرى فقد جاءت بعد أن جادت شاعريته ، ونلمح فيها حسن السبك ، وجودة الصياغة ، مثل بدئه لقصائده فى عهد السلطان أبى سالم بالغزل فى أسلوب محكم رقيق حين يقول :

أسْرَفْنَ فِى هَجْرِى وفِى تَعْذِيبِى

وأطَلْنَ موقف عَبْرَتى ونَحِيبِى

لله عَهْدُ الظَّاعِنِينَ وغادَروا

قلبى رهِينَ صَبَابَةِ ووَجِيبِ

إلى آخر القصيدة ، ولكنه قد تأتى أبيات يستخدم فيها بعض ما لا يجوز فى اللغة مثل قوله :

عَسَاكَ وإنْ ضَنَّ الزَّمانُ مُنَوِّلى

فرَسْمُ الأمانِى مِنْ سِواكَ مُحيلُ

فاستعمل خبر (عسى) اسماً ، وهذا ليس فى جيد الأساليب العربية بل هو نادر فيها [1] .

أما موسيقى الشعر عند ابن خلدون فقد استخدم فيها البحور الكثيرة التفعيلات والتامة الأوزان ، كالطويل ، والكامل ، والبسيط ، وهى بحور تتناسب مع

(١) شرح ابن عقيل بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

الموضوعات التى طرقها، والمناسبات التى قال شعره فيها ولها إيقاعها الخاص، وطولها الذى يسمح بأن يملأه بالمعانى التى يريدها، فإلى جانب جرس الألفاظ وانسجامها يكون البحر الشعرى الكثير التفعيلات فرصة يستطيع الشاعر من خلالها أن يبرز ما فى خاطره من المعانى والأفكار، أما البحور المجزوءة فربما لا تتوافر فيها رحابة التعبير عن كل ما يجول فى خاطر الشاعر، وقد يستخدم الشاعر ما أجازه العروضيون فى الأوزان من العلل حيناً وفى حين آخر يلجأ إلى الضرورات التى تجوز للشاعر [1].

وبمراجعة البحور عند الشاعر ابن خلدون نجد قصيدته الأولى من بحر الطويل حين يقول : (على أى حال لليالى أعاتب)، وقد طال نفسه فيها إلى نحو مائتين بيتاً كما قال، وقصيدته الثانية من بحر الكامل ومطلعها : (أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى) . . . إلخ

وكذلك قصيدته التى مطلعها : (قدحت يد الأشواق من زندى) واستخدم لوناً من العروض والضرب مختلفاً عن القصيدة الأولى، وهو لون من النغم جديد يعطى موسيقى جديدة تعبر عن الطرب بطريقة أخرى، والممدوح والسامع يهتزان لها، ويعود إلى بحر الطويل مرة أخرى فى قوله :

هنيئاً بصوم لا عداهُ قبولُ
وبشرى بعيدٍ أنتَ فيه مُنيلُ

متخذاً عروضاً وضرباً مختلفين عما استخدمه عليه فى شعره من قبل بنغم جديد، ثم يستخدم البسيط فى قصيدته :

حيِّ المعَاهِد كانتْ قبلُ تُحيينى
بواكفِ الدَّمْع يُرويها ويُظمينى

ثم يعود إلى الطويل، وينتقل بين الكامل، وغيره فى قصائده الأخرى، ويختار القوافى التى تعد شريكة الوزن فى إثارة مشاعر السامع والقارىء فللقافية قيمة

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢/ ١٠٩ .

موسيقية فى مطلع القصيدة وتكرارها يزيد فى وحدة النغم، والقوافى يكون لها تأثيرها إذا جاءت غير متكلفة، وتوزع الروى فيها بين الحروف المجهورة ذوات الصوت المرتفع كالباء واللام فقد استخدم الشاعر القوافى المطلقة التى تتناسب مع أنفاس الشاعر الطويلة، ونجد فى حركة الروى ما يساعد على الانطلاق والامتداد فى النغم الموسيقى كالباء المكسورة أو المضمومة، أو اللام أو الدال المكسورة أو اللام المضمومة ونحو ذلك وينشأ عن إشباع الحركة ما يسمى بالوصل واوا كان أو ياء أو ألفا، كما قال الشاعر ابن خلدون :

أَبَى الطيف أن يعتَاد إلا تَوهُّماَ

فمن لى بأن ألقَى الخيالَ المُسلِّماَ

ويستخدم الوصل بالهاء كما يقول :

سَيِّدى والظُّنون فيكَ جَميلةْ

وأياديك بالأمانى كَفيلةْ

ويستخدم التصريع فى كل قصائده، مما يضفى على القصيدة لوناً من الموسيقى والنغم الذى تتميز به، والقارىء لقصائده يرى أنه استخدم الوزن والقافية استخداماً يصلح للإلقاء الشعرى ويكسوه أبهة ورونقاً وديباجة ويزيده مائية وطلاوة [١]

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٣.

أهم المراجع

- الإحاطة فى أخبار غرناطة. لسان الدين بن الخطيب. ط. القاهرة ١٣١٩ هـ.
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى. ط. بريل. ليدن ١٩٠٦م.
- أدب الأندلس وتاريخها. ليفى بروفنسال. ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة. المطبعة الأميرية ١٩٥١ م.
- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة. د. أحمد هيكل. ط. دار المعارف. الطبعة العاشرة - ١٩٨٦ م.
- الأدب فى العصر المملوكى (الدولة الأولى ٦٤٨هـ - ٧٨٣هـ. د. محمد زغلول سلام. ط. دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى أحمد بن خالد الناصرى. ط. المطبعة البهية بالقاهرة - ١٣١٢هـ.
- أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب. مكتبة النهضة المصرية ط ٦-١٩٦٠م.
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس. ط. بولاق ١٣١١هـ.
- البديع فى نقد الشعر لابن منقذ. تحقيق. د. أحمد بدوى و د. حامد عبد المجيد. ط الحلبى ١٩٦٠م
- بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد. ليحيى بن أبى بكر بن خلدون أخى عبد الرحمن بن خلدون. ط ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠م - الجزائر.
- بلاغة العرب فى الأندلس. د. أحمد ضيف. مطبعة مصر ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب. لابن عذارى. تحقيق كولان وليفى بروفنسال. ط - دار الثقافة. لبنان.

- تاريخ آداب العرب. لمصطفى صادق الرافعى. القاهرة ١٩٤٠م.
- تاريخ آداب اللغة العربية. لجورجى زيدان. ط دار الهلال - ١٩٥٧م.
- تاريخ الأدب الأندلسى. د. إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت.
- التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. من مطلع الإسلام حتى العصر الحاضر. د. أحمد شلبى ط٢/ ١٩٦٦م. طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية.
- تاريخ الأمم والملوك. للطبرى. ط. الأولى. الحسينية ١٩٣٩م.
- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان. القاهرة. ١٩٤٠م.
- تاريخ الجزائر العام. عبد الرحمن الجيلالى. ط. بيروت ١٩٦٥ م.
- تاريخ الجزائر القديم والحديث. مبارك محمد الهلالى الميلى. مكتبة النهضة. الجزائر.
- تاريخ علماء الأندلس. لابن الفرضى. ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.
- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا. الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى. ط٢. دار المعارف ١٩٦٣م.
- تاريخ المغرب الكبير. محمد على دبور. ط. الأولى ١٩٦٣م. دار إحياء الكتب العربية.
- تاريخ المغرب والأندلس. د. عصام الدين الفقي. ط. القاهرة - ١٩٨٥م.
- تاريخ اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر). ط بريل ١٨٨٣ م.
- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. لعبد الرحمن بن خلدون. تحقيق محمد بن تاويت الطنجى. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٧٠هـ — ١٩٥١م.
- جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لأحمد بن محمد بن القاضى. ط. فاس ١٣٠٩هـ.

- الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . عثمان الكعاك . ط . معهد الدراسات العربية ١٩٦٥م .

- الخطط للمقريزى . ط . الشعب عن ط . بولاق ١٢٧٠هـ ، ط . دار التحرير للطبع والنشر .

- دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . د . على إبراهيم حسن . ط . الثانية ١٩٤٨م .

- دراسات فى التصوف الإسلامى . د . محمد عبد المنعم خفاجى . ط . دار الطباعة المحمدية .

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . لابن حجر العسقلانى ط . حيدر آباد - ١٣٤٨هـ .

- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى . مطبعة السعادة .

- الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب . لابن فرحون . ط . الأولى . القاهرة - ١٩٥١م .

- ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى . تحقيق محمد عزام . ط . دار المعارف ١٩٥٧م .

- ديوان البحترى . ط . بيروت ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .

- ديوان جرير . ط . بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠م .

- ديوان عمر بن أبى ربيعة . ط . بيروت .

- ديوان كثير عزة بتخريج د . إحسان عباس . ط . لبنان .

- ديوان كعب بن زهير برواية أبى سعيد السكرى وشرحه . ط . دار الكتب المصرية . ط . الأولى ١٩٥٠م .

- ديوان المتنبى بشرح الشيخ ناصف اليازجى . ط . دار صادر . بيروت .

- السلوك فى معرفة دول الملوك . للمقريزى . تحقيق د . محمد مصطفى زيادة .

- السنن الكبرى للبيهقى . ط . دار المعرفة . بيروت .
- شرح ابن عقيل . بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى . عباس محمود العقاد . ط . القاهرة ١٩٣٨م .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . للقلقشندى ط . دار الكتب المصرية ١٩١٥م .
- الصناعتين لأبى هلال العسكرى . ط . الأولى الأستانة . ٣٠٣١ هـ .
- العبر لابن خلدون . ط . المطبعة المصرية ببولاق ١٢٨٤ هـ . ، ط . دار الكتاب اللبنانى ومكتبة المدرسة .
- العقد الفريد . لابن عبد ربه ط . الشرقية ١٣٠٤هـ .
- العمدة فى صناعة الشعر ونقده . لابن رشيق القيرواني . ط . ١٩٢٥م .
- عيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق الحاجرى ومحمد زغلول سلام . ط . ١٩٥٦م .
- فتح العرب للمغرب . د . حسين مؤنس . ط . القاهرة ١٩٤٧م .
- فتوح البلدان . للبلاذرى . نشره . د . صلاح الدين المنجد . مكتبة النهضة المصرية .
- فتوح مصر والمغرب . لابن عبد الحكم . تحقيق د . على محمد عمر . مكتبة الثقافة الدينية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م .
- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . د . شوقى ضيف . ط ١٩٧٦م .
- فى الأدب الأندلسى . لجودت الركابى . ط . دار المعارف - ١٩٨٠ م .
- فى النقد الأدبى . د . شوقى ضيف . ط . دار المعارف .
- قادة فتح المغرب . للواء الركن محمود شيت خطاب . ط . الأولى ١٩٦٦م . دار الفتح للطباعة والنشر . بيروت .
- القاموس المحيط . للفيروزابادى . ط الثانية ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

- الكامل لابن الأثير. ط. الأولى. المطبعة الأزهرية ١٢١٠هـ.
- المختصر فى أخبار البشر. لأبى الفداء. الطبعة الأولى. المطبعة الحسينية المصرية.
- المدائح النبوية لزكى مبارك. المكتبة العصرية صيدا. بيروت ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م.
- مصر فى العصور الوسطى. د. على إبراهيم حسن. ط ٢ - ١٩٤٩م.
- معجم البلدان - لياقوت الحموى. ط. الأولى. ط. السعادة.
- المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ط. الثانية. دار المعارف بمصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- المغرب الإسلامي. د. السيد محمود سالم. كتاب الشعب. العددان ١٣٨، ١٣٩ القاهرة.
- المغرب الكبير. د. السيد عبد العزيز سالم. الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦م.
- مقدمة ابن خلدون. تحقيق. د. على عبد الواحد وافى ط. الثالثة. دار نهضة مصر للطبع والنشر. الفجالة. القاهرة.
- من حديث الشعر والنثر. د. طه حسين. ط. القاهرة ١٩٣٦م.
- نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان للأمير إسماعيل بن يوسف بن القائم بأمر الله محمد بن الأحمر. مخطوطة دار الكتب المصرية. برقم: خصوصية ١٨٦٣ - عمومية ٤١١٥٦.
- نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان للآمير إسماعيل بن يوسف بن القائم بأمر الله محمد بن الأحمر. دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية ط. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٧م.
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. لابن تغرى بردى الأتابكى. ط. الأولى. ط. دار الكتب المصرية ١٩٢٩م.

المحتوى العام للبحث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيـــــداع

٢٠٠٠/٨١٩١